فازت الكاتبة بجائزة "كفافيس الدولية" 2001

بيرسا كوموتسي

رواية

أصوات سكندرية

في شارع ليبسيوس

ترجمة: د. خالد رؤوف

صفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

بيرسا كوموتسي

أصوات سكندرية

في شارع ليبسيوس

1

د.خالد رءوف/ درس التاريخ والآثار والأدب المعاصر في جامعة أثينا، الدراما والمسرح في مدرسة المسرح القومي اليوناني، وحصل على دكتوراة في تاريخ الفن الكلاسيكي اليوناني الروماني جامعة شيكاغو. درس اللغة اليونانية في جامعة أثينا وحصل على دبلومة في الترجمة من نفس الجامعة وعلى دبلومة أخرى في الترجمة من الإتحاد الأمريكي الهليني. له ترجمات عن اللغة اليونانية منها "جبران العالم" مختارات شعرية ـ يانيس ريتسوس؛ "ألكسيس زوربا، سيرته وحياته" ـ نيكوس كازانزاكيس.

أصوات سكندرية

طبعة 2022

رقم الإيـــــداع: 2022/3315

الترقيم الدولي: 978-977-821-246-4

الناشر

محمد البعلي

إخراج فني

علاء النويهي

This is full translation of:
Αλεξανδρινές φωνές στην οδό Λέψιους (Alexandrian voices in Lipsious street) by Persa Koumoutsi (ΠΕΡΣΑ ΚΟΥΜΟΥΤΣΗ).



دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
49 شارع المخزن- العمرانية- الجيزة- مصر

بيرسا كوموتسي

أصوات سكندرية

في شارع ليبسيوس

رواية

ترجمها عن اليونانية: د. خالد رؤوف

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشئون الفنية

كوموتسي، بيرسا
أصوات سكندرية في شارع ليبسيوس، رواية / بيرسا كوموتسي،
ترجمة: خالد رؤوف
الجيزة، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠٢٢
٢٢٤ ص، ٢٠ سم
تدمك ٥-٢٤٩-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨
١- القصص اليونانية
أ- رؤوف، خالد (مترجم)
ب- العنوان
٨٨٣

رقم الإيداع: ٣٥٧٧/ ٢٠٢٢

«نرحل ـ نعود: لكن دائمًا ما نكون هنا أو هناك، دائمًا في نفس النقطة، أي، نرحل ونعود لنفس اختيارنا الوجداني.

في واقع الأمر، نبقى في مكاننا ثابتين على شغفنا».

يروغوس فايس

المدينة

قلت: «سأذهب إلى أرض أخرى، سأذهب إلى بحر آخر.

مدينة أخرى ستوجد أفضل من هذه. كل محاولاتي مقضي عليها بالفشل،

وقلبي مدفون كالميت. إلى متى سيبقى فكري حزينًا؟

أينما جلت بعيني، أينما نظرت حولي

رأيت خرائب سوداء من حياتي

حيث العديد من السنين قضيت وهدمت وبددت.

لن تجد بلدانًا ولا بحورًا أخرى. ستلاحقك المدينة

وستهيم في الشوارع ذاتها. وستدركك الشيخوخة

في هذه الأحياء بعينها، وفي البيوت ذاتها

سيدب الشيب إلى رأسك.

ستصل على الدوام إلى هذه المدينة.

لا تأمل في بقاع أخرى.

ما من سفين من أجلك، وما من سبيل.

وما دمت قد خربت حياتك هنا،

في هذا الركن الصغير،

فهي خراب أينما كنت في الوجود».

قسطنطين كفافيس

"عندما أرتدي الملابس السوداء، وأسكن في منزل أسود، في غرفة مظلمة، سأفتح ذات مرة الخزانة بسعادة وشغف وشهوة. سأرى الملابس وأتذكر عيدًا كبيرًا؛ حينها، كل شيء سيكون قد تبدد تمامًا".

لم يكشف وجه الطبيب خريستوفوروس باباستيفانوس عن قلقه بشكل واضح عن حالة المريض الذي يجلس أمامه الآن، وينظر إليه بعينيه المستديرتين من خلف نظاراته السميكة. وبينما كان يصوب نحوه نظرة استفهامية، بدا قلقه كأنما يبلغ ذروته، وكذلك تردده، في اختيار الكلمات التي كان يجب أن يعبر بها عن تشخصيه بعناية.

عقد الآخر حاجبيه الرماديين، وراح ينظر إلى وجه الرجل الغائم وكأنه يراقبه، أو كأنه يحاول أن يستقرئ أفكاره. كان يجلس في سكون تام أقرب للتجمد في انتظار قرار الطبيب، كمتهم ينتظر حكم قاضيه.

نظرته الحادة الثاقبة جعلت عدسات نظارته السمكية تبدو شاحبة، بينما كان ضوء المصباح الكهربائي منتصبًا بينهما على

مكتب الطبيب، إلا أنه كان يرى بوضوح توتره وخوفه.

قرر قسطنطين أن يذهب إلى الطبيب باباستيفانوس قبل أيام قليلة، بعد عودته من رحلته إلى القاهرة. كلمات صديقه نيكولاس فافياذيس، أو بالأحرى تعبير القلق الذي ارتسم على وجهه فور أن رآه وسمع بحة غريبة في صوته؛ اقترح عليه أن يذهب فورًا للطبيب. وبعد ذلك، عندما استيقظ في الصباح بعد أن قضى ليلة كابوسية في شلل تام بسبب الحمى، أدرك حلول لعنة غير مرئية.

الإحساس بالاختناق الذي كان يراوده بين الحين والآخر في الفترة الأخيرة، صار يترك آثارًا ظاهرة عليه وبالأخص على عنقه وصوته. اشتدت حدة البحة وكان يجد صعوبة بالغة في الابتلاع، بينما الألم الكبير الذي كان يخرق أذنه منذ الصباح لم يبارحه أبدًا. كل هذه العلامات الدامغة بالتأكيد دفعته نحو اتخاذ قرار زيارة الطبيب الماهر ذائع السيط.

«لا، لا، أنا متأكد تمامًا، لسنا بصدد نزلة برد، ولا الأمر يتعلق بفيروس ما أو مرض مُعْدٍ، ولا حتى بمرض تناسلي كما تخيلت» ثم تنحنح قليلًا مصدرًا صوتًا أشبه بسعال جاف واستطرد بنفس الحذر.

«هذه الأعراض لا تبوح بشيء كهذا بالتأكيد. لكن...».

وجه الرجل المتجهم زاد من توتر قسطنطينوس وانزعاجه، بينما صبره كان قد نفد بالفعل. فقد كان صعبًا عليه أن يكون

هنا، وبالأخص أمام هذا الرجل. كان يعرف قسوته وصلابته فيما يتعلق بأمور الانضباط الأخلاقي، حتى تعليقاته اللاذعة بين الحين والآخر لشخصه في التجمعات والمناسبات الرسمية لمعارفهم المشتركين إذ كانت دعوته أمرًا نادرًا، بالرغم من أنه كان يسكن على مقربة من المنزل الذي التقيا فيه لأول مرة منذ سنوات طويلة. وهو الأمر الذي جعله يفكر وهو في طريقه إلى عيادته، أن يذهب إلى طبيب آخر في حي آخر حتى يتجنبه تمامًا هو ونظرته اللاذعة المحرجة. كان يبدو دائمًا وكأنه أسمى من أي ضعف إنساني، نقي ومعصوم.

لم يكن يتحمل كل هذا النفاق، ولا بالطبع كل ذلك الحب الذي كان يستقيه من كل أبناء الجالية تقريبًا. كانوا يعشقونه لدرجة أنهم ارتقوا به إلى مرتبة قديس صانع معجزات يطبب كل شيء. إلا أنه قرر أن يأتي إليه لأنه على درجة كبيرة من العلم كما أكد له صديقه فافياذيس، وأن كل الجالية تثق به وحده ولا أحد آخر، بينما شهرته ذاعت في مدن كثيرة في مصر. كان الكثيرون من أبناء الجالية في العاصمة يتكبدون عناء السفر إلى الإسكندرية حتى يفحصهم الطبيب «صانع المعجزات». ثم إنه لو لم يكن يأمل في أن هذا الرجل سيكذب كل مخاوفه وبكل بساطة سيرسله إلى منزله مرتاح البال صافي الوجدان من كل شك وقلق، ربما لم يكن ليشرع في الوصول إلى عيادته. لكن الآن...

«لكن؟».

«لكن أعتقد أنه شيء آخر. شيء من المحتمل... سنحتاج بالتأكيد إلى أن تقوم ببعض الفحوصات الإضافية كي نتأكد. ونتجنب أي تشخيص عشوائي، من الممكن أن..» تردد ثانيةً، لكن هذه المرة للحظة وجيزة، ثم أضاف بنبرة واضحة. «لكني سأكون صريحًا تمامًا معك. الحقيقة هي أن الفحوصات الأولية والعوارض تشي بأن هناك أمرًا شديد الجدية» أوضح الطبيب أخيرًا بهمة متجددة وبأسلوبه الجاد المعتاد كرجل علم مسؤول يعرف عمله جيدًا ويخلص لقَسم الطبيب.

على الرغم من أنه لم يحب قسطنطين ولا يكن له احترامًا لما يذاع عنه في الإسكندرية، وليس فقط من أجل الحياة المتمردة المستهترة غير المستقرة التي يعيشها، على الأقل إلى زمن ليس ببعيد، وخصوصيته وأيضًا شخصيته المستفزة، لكن لأنه في أعماقه كان يغار منه. كان يغار من موهبته وشغفه بالحياة، وقوته وشجاعته الفريدة أن يواجه بمفرده مجمتعًا بأكمله يختبئ خلف نفاقه وتحفظه دون أن يعطي أدنى اهتمام بما يقال عنه.

أما هو فكــان يجب عليه دائمًا أن يتوافق ويتكيف ويستجيب للصورة التي نسـجها الآخرون عنه، ويتنصل من أعمق احتياجاته ويغلق عينيه عن من هو في الحقيقة. ولو لم تكن مهنته التي هو شغوف بها أيما شغف والتي يصب فيها كل طاقاته وشغفه، لم يكن ليحتمل للحظة حياته الروتينـية المملة. ولذلك، خرجت الكلمات من فمه بصعوبة إلا أنه استطاع أن يتخلص من مشاعر

الألفة والتعاطف التي ملأته أثناء نطقه للكلمات.

«ماذا تعني، حدثني بوضوح» استطاع أخيرًا قسطنطين أن يسأل مجتازًا دقات قلبه العالية؛ كانت قوية جدًّا لدرجة أنه ظن أن قلبه يصيح بخوفه الذي يتملكه الآن تمامًا.

«أخشى أنه من المحتمل أننا ربما نواجه ورمًا خبيثًا» أجاب الطبيب باقتضاب دون مراوغة، كي يتجنب أي احتمال لسوء الفهم قد يحتاج فيما بعد إلى توضيحات مستفيضة ومجهدة. توقف قليلًا حتى يستوعب المريض كلماته ثم راح بهوادة وبنبرة تكاد تكون ودودة في صوته فاجأته هو نفسه، «لا يجب أن نيأس ولا أن نستسلم للخوف يا قسطنطين. يجب أن نقوم بفحوصات أخرى...».

لم يسمع قسطنطين باقي حديث الطبيب، ثمة طنين ملأ أذنيه وظلام تام غطى كل شيء حوله.

شرد ذهنه بعيدًا، راح يتجول في دروب خوفه وقلقه، شعور لا يتذكر أنه عاشه من قريب أو بعيد في حياته من قبل. وبالرغم من أنه كان يعرف في داخله، كان يتوقع شيئًا كهذا، فمنذ فترة وبدأ جسده ينصاع للمرض ببطء لكن بثبات بشكل خارج عن سيطرته، ومع ذلك لم يكن ينتظر أن يسمع تلك الكلمات مباشرة من فم طبيب.

كان يأمل طبعًا أن يُكَذّب الطبيب مخاوفه، وأن يحيل الأعراض

إلى إرهاق نفسي على سبيل المثال أو إلى نزلة برد أو شيء بريء تمامًا وبسيط. لكنه لم يترك له أي هامش للشك أو الجدال.

«وماذا يجب أن أفعل؟» سأل قسطنطين وكأنه في حالة خدر تام كما لو كان يخرج من رمال هواجسه المتحركة.

لم يجب الطبيب باباستيفانوس مباشرة. عندما أدرك تضخم قلق الآخر، أخذ نفسًا عميقًا وقال: «في البداية، يتوجب الهدوء. سنقوم بفحوصات أخرى ولو صدقت شكوكي وأتمنى ألا تصدق، يجب أن تعرف أن العلاج المناسب سيستغرق وقتًا طويلًا...».

«في الحالة التي... أعني، إذا ما تحققت مخاوفك، هناك علاج؟». سأل قسطنطين بعدما استجمع قواه مقاومًا شعورًا مؤلمًا سيطر عليه، وألمًا شديدًا شعر به فجأة يضرب أذنيه حتى عنقه.

خفض خريستوفوروس جفنيه نحو مكتبه. أمسك بريشته كما لو أراد أن يتمسك بشيء وراح يكتب إرشاداته ووصفة علاج الورم والألم. ثم رفع عينيه مجددًا وقال: «مع الأسف، العلم، برغم القفزات الهامة التي قام بها، إلا أنه فيما يخص بعض الأمراض لا يزال أمامه طريق طويل..». لم يرد الرجل فأكمل الطبيب: «لكن وكما قلت، علينا أن نتحلى بشيء من الهدوء والإيمان بالحياة. الحياة التي تفاجئنا دائمًا يا عزيزي قسطنطين».

سكت الرجل، لكن قسطنطين لم يكن متأكدًا إذا كان الطبيب قد انتهى من حديثه. بعد لحظات، عندما رآه يتحرك بعصبية على

مقعده، أدرك أن الجلسة قد أوشكت على الانتهاء وأن الطبيب لم يعد لديه ما يضيفه.

بالرغم من اللهفة لبصيص من الأمل -محض بريق في هذه الظلمة التي تمددت بداخله فجأة- نهض من على مقعده كي يغادر. لكنه قبل أن يمد يده ليصافح الطبيب، سأله مرة أخرى بشكل مباشر فاجأ به الرجل، هذه المرة دون أي لمحة تردد: «في حالة تأكد التشخيص، كم تبقى لي من الزمن؟».

****

[...] خرج من مدخل البناية الفخمة ذات الطراز الإيطالي، حيث توجد العيادة الفخمة أيضًا للطبيب باباستيفانوس مع عيادتين أخريين شهيرتين في المنطقة، في شارع فؤاد الأرستقراطي المزدحم بفيلاته الأنيقة ومحلات الأنتيكة الشهيرة. تنهد قسطنطين بعمق كما لو أراد أن يُخرج من صدره ثقلًا كبيرًا، لكي يتفادى فضول بعض المعارف في الطريق كانوا على الجانب المقابل من الشارع، ألقى عينيه على رصيف الطريق الذي ظل ساخنًا بالرغم من نسمات الربيع التي تداعبه في الظهيرة، فقد كانت الشمس ساطعة فشعر قسطنطين بحرارتها تنعكس على وجهه.

أجراس بعض الكنائس كانت تصدح من بعيد معلنة بإيقاعها الحزين بدء أسبوع الآلام، وحزنه. صدى كلمات الطبيب لا يزال يطن في أذنيه كالنحل، لكن لا يجب أن ييأس، راح يفكر. لم يتحدد شيء بعد. ربما، لو ذهب إلى أثنيا من أجل تشخيص جديد؛ ربما يجب أن يخضع إلى اختبارات أخرى. نعم، لن يستسلم بسهولة أبدًا. لا بد أن يقاوم.

لكن ماذا لو لم يستطع؟ ماذا لو أن حالته ستجبره أن يظل هناك؟ هل سيستطيع، ربما يحتاج الأمر إلى أن يترك الإسكندرية للأبد. الفكرة وحدها أربكت كيانه.

لا، لم يستطع أبدًا أن يتخيل حياته بعيدًا عن هذه المدينة، هذه المدينة التي أثرت فيه وشكلت وجدانه أكثر من أي مكان آخر. التفكير في المدينة اجتاحه كفيضان، بينما الأفكارالسلبية عن مرضه، اللعنة التي حلت عليه فجأة، أثقلت خطواته أكثر فأكثر، كان من بعيد يبدو وكأنه رجل يحمل على كتفيه ما يفوق قواه.

كان واثقًا من أمر واحد، وهو أنه لو رحل عن هنا، عن هذه المدينة، حتى وإن لم يرها مرة أخرى أبدًا، ستستمر الحياة في مسيرتها بالمدينة بقصصها الصغيرة والكبيرة لأهلها الذين شكلوا بالنسبة له طاقة إلهام إلهية، مثل إلهية مدينته التي يعشقها والتي كانت تتبعه في كل مكان أينما ذهب، بالرغم من أنها لم تشبع أبدًا من وضعه في تجارب قاسية وغيرها ساحرة،

كان يقول قسطنطين، لكنه كان يكتب أكثر.

في أحيان كثيرة كانت تطارده بإلحاح فكرة غريبة وهي أن هذه المدينة تؤول له. هو وحده يجب أن يعشقها، يتغنى بها، يُخَلّدُها وفي الوقت نفسه يلومها، يوبخها وينتقدها ويلعنها. أن يناجيها ويمجدها أيضًا، أن يطلق عليها سهام غضبه وفي الوقت نفسه أن يكن لها حبًّا جمًّا غير مشروط بلا حدود.

الإسكندرية!

تأمله العميق عاد به إلى ذكرى قديمة، حادثة ما -قبل بضع سنوات تقارب عشر سنوات أو أكثر، عندما كانت الحياة تجري في مياه نشواها المألوفة- حوار مع ذلك الصديق. حديث عابر بسيط لكنه منذ تلك اللحظة ستتغير تمامًا طاقة العلاقة بينهما وليس فقط، بل علاقته هو نفسه بالمدينة.

كان قسطنطين يجلس في البلكونة الصغيرة التي تطل على الجانب الخلفي للشارع، ويشرب قهوته عندما وصل الآخر في هدوء وصمت ودون أن ينطق بكلمة، وضع على ركبتيه ذلك المخطوط الضخم الذي كان بيديه بورع شديد. وضعه بحرص شديد كما لو كان يضع طفلًا لقيطًا أمام والديه بالتبني وينتظر بلهفة لحظة التجاوب والقبول.

بعد لحظاتٍ عندما لم يتلقَّ أي رد فعل من جانبه، على الرغم من

نظرة تساؤل عابرة، شرح له صديقه بينما غطت وجهه ابتسامة عريضة متفاخرة، ابتسامة كان يعاني من ترويضها وإخفاءها منذ أن دخل الحجرة واقتحم عزلة وهدوء الآخر. «الإسكندرية، يا قسطنطين!» قالها صائحًا، تقريبًا.. لفظ اسم المدينة ضايقته آنذاك. كما كان يضايقه يقين وحماس صديقه، لكن أكثر ما ضايقه هو تعبير النصر لدى الرجل..

«الإسكندرية! أخيرًا انتهى الكتاب».

رفع عينيه وراقبه بحرص، دون أن ينطق بكلمة. راح يتفحص وجهه كأنما أراد أن يقرأ أكثر مما نطقت به الابتسامة المنفرة والعينين الزرقاوين للبريطاني البارد.

وضع جسده وتعبيره كانا يذكرانه بطفل صغير، يستعرض أمام صديقه شيئًا جديدًا لامعًا اقتناه لتوه بشيء من الخجل وامتنان صامت يلمس حدود الانتصار.

عندما عَبَّرأخيرًا قسطنطين بإيماءة باهتة عن تساؤله بلامبالاة، استمر الآخر بنفس روح الانتصار ممزوجة بحيوية غريبة بالنسبة لعمره: «حتى الآن لا أستطيع أن أصدق أنني نجحت بالفعل في أن أكمله».

لم يتكلم قسطنطين فاستمر الآخر: «سأود أن تلقي عليه نظرة يا قسطنطينوس، فكما تعلم، رأيك هام جدًّا بالنسبة لي».

لم يجب مباشرة. ترك بضع لحظات تمر وهو يراقب نفاد صبر الآخر أمامه ثم نطق أخيرًا، قال له بنبرة محايدة: «سألقي عليه نظرة بهدوء. عندما تسنح لي فرصة».

ما زال يتذكرمفاجأة الآخر كما لو كانت بالأمس. حتى إنه لا يزال يتذكر ما الذي أراد أن يقوله حقًّا، والآن اخرج من هنا حتى أشرب قهوتي في هدوء، أو إذا لم يشأ، لم يستطع أن يراه يقف هناك بهذا التعبير الذي يعبر عن مفاجأة وإحباط صريحين، وعندما نفد صبره تمامًا، ترك الرجل المخطوط على الطاولة بينما استمر الآخر في شرب فنجان قهوته بهدوء معذب.

غياب الحماس الواضح من جانب صديقه سبب له اضطرابًا واضحًا. بدا وكأن مجيئه لم يحدث، ولم يره يقف أمامه بقلق ولهفة كالمسكين لمجرد كلمة مشجعة. شعر قسطنطين بشيء من الرضا مدركًا تضايقه، بالرغم من أنه نجح في ترويض الفضول المفاجئ الموجز الذي اكتنفه للحظات. في واقع الأمر فعل كل ما في وسعه محاولًا ألا يظهر أي شعور على الإطلاق حتى شعر الإنجليزي بالضجر من صمته وغادر بيته ملقيًا ناحيته إيماءة سريعة وباردة نوعًا.

حينها استطاع قسطنطين أن يتصفح المخطوط بأيادٍ مرتعشة بالفعل.

الكتاب، وإن كان يتقرب من النصوص التاريخية وكتابات السفر، إلا أنه لم يترك لدى قسطنطين أي شك أنه كان كتابًا رائعًا. فلم يترك أي ناحية تاريخية تخص الإسكندرية بلا بحث وتحقيق. فتطرق الرجل إلى كل مراحل الإسكندرية التاريخية خلال الثلاثة آلاف سنة منذ تأسيسها. خلدها كما لم يفعل أي كاتب آخر حتى الآن. كل عصر، كل العصور، لكنه ركز بشكل رئيس على سلالات البطالمة وعلاقة الملكة كليوباترا بأنطونيو!

ماهذه الوقاحة! تمتم قائلًا ثم ندم على ما قاله، وكأن ذلك العصر يؤول إليه وحده.

شعر بالغيرة تنمو بداخله عندما وصل إلى مشهد دخول الإسكندر الأكبر إلى المدينة. حينها القبضة التي شعر بها في صدرة باتت واضحة. لم يكن الكتاب فقط رائعًا، بل كان الإنجليزي فريدًا، إلا فيما يخص سعيه وراء الخلود بإيماءة ماكرة، فاسمه سيظل مرتبطًا بهذه المدينة للأبد!

لم يعر الفصل الذي يشير إليه أي انتباه. في واقع الأمر، تجاوزه دون قراءة، دون أن يلقي نظرة وحيدة. ماذا يريد الراجل بزج اسمي في كتاب كهذا. لا. لم يهتم بهذا الشيء على الإطلاق.

إشاراته إلى الآثار التاريخية للإسكندرية لم تكن فقط مكتوبة بروعة، لكنها كانت مرتبطة بتاريخ المدينة بشكل كبير، بنواتها، بماضيها وحاضرها، بتفصيل ملحمي بديع!

انبهر قسطنطين. الرحلة التي يقدمها الرجل للمتلقي كانت رائعة وفريدة، كانت رحلة تبدأ من المركز من ميدان القناصل وتمثال محمد علي، حيث حوله صديقه إلى نقطه انطلاق وإشارة لتاريخه، بينما وصف الشوارع -يالها من مراوغة ماهرة- كل منها مرتبط بفرع جديد للجغرافيا البشرية وتاريخها. وكانت هناك خرائط ورسومات وصور وتعليقات لا تحصى. الإنجليزي الملعون نجح في المستحيل وفي وقت قياسي.

منذ تلك اللحظة، اهتزت صداقتهما وتزعزعت عن مكانتها وحلت محلها الغيرة والتنافسية. التفكير في هذا الكتاب كان يعذبه. عشر سنوات يتعذب، كما كان يعذبه منظر الرجل وتعبير وجهه آنذاك، كما لو كان ينظر إليه من مكان عالٍ ويضع انتصاره عليه بين يديه.

مهما حاول، لم يستطع أبدًا أن يمحو تلك الصورة عن ذاكرته، ذلك التعبير المفعم بالتباهي والانتصار، هي نفس الصورة والحالة عندما كشف له عن علاقته بذلك الشاب الجميل الذي كان يعمل في شركة الترام. حينها أيضًا أخذت الغيرة تزحف بداخله كالدودة وتنخر أحشاءه، كانت تأكله ببطء وتعذبه والأسوأ هو أنه لم ينتبه أبدًا إلى سببها الحقيقي.

فكر مرات عديدة في البداية على الأقل أن يحبط نجاح الرجل. لو أقنعه بأنه لن يستطيع أن ينشره؟ لو استطاع أن يخبئ المخطوط

أو يخفيه وكأنه لم يكن؟

لكن تلك الحزمة من المهارات والألاعيب لم تكن من هباته.

في أحيان كثيرة كان يفكر في كل تلك النظريات عن انتقال المعنى في لعبة العلاقات الإنسانية والنظرية الأخرى للسيد الأكبر، وبخفة ومهارة لاعب الأوراق يحرك بقية اللاعبين حتى إنه يوجه اختياراتهم. كرَب متحكم! لكن عبقريته في هذا النوع من الألعاب كانت تخونه دومًا. وهكذا ظل شغفه الخامل الباهت الانهزامي بلا شبع للأبد. نعم، كانت هي الحقيقة. فلم يستطع أبدًا أن يتخلص من مشاعر الإعجاب والانبهار والغيرة في الوقت نفسه التي كانت تعذبه آنذاك وربما لسنوات كثيرة فيما بعد.

في كثير من الأحيان كان يشعر بالعار تجاه هذا الشعور المتدني المذموم نحو صديقه، لكنه لم يستطع أبدًا أن يسيطر عليه. حتى اليوم، حتى تلك اللحظة التي أخبره فيها الطبيب المنفر خريستوفوروس باباستيفانوس بالخطر الذي يهدد حياته، وأنه لو صدقت شكوكه فآجلًا أو عاجلًا سيكون صريع الضعف والعجز.

ابتسم قسطنطين بتهكم ومرارة لهذه الذكرى التي بدت له بعيدة جدًّا والأبرز أنها بدت تافهة. في واقع الأمر كل ما كان يعذبه في الماضي من أشخاص وأشياء باتت فجأة صغيرة وضيعة وتافهة، الآن بعدما انقلب كل شيء في حياته رأسًا على عقب وصارت

حياته معلقة بخيط هش رفيع على وشك الانقطاع في أي لحظة.

لم يكن يعرف بالتحديد كيف ستتطور حالته من الآن فصاعدًا. أمر واحد هو المؤكد، لم يكن مستعدًّا أن يودع هذه المدينة للأبد، عروس البحر الجميلة، التي تغنوا بها آلاف المرات. مدينته، التي وإن كانت قد جرحته وخانته مرات عديدة، وإن كان قد عانى الكثير كي يهجرها، كان دائم العودة إليها، هي فقط. فقد كانت تتبعه دائمًا وأبدًا، أينما ذهب، وفي كل المرات التي كان يبحث فيها عن مدينة أفضل، لم يجدها أبدًا في أي مكان آخر.

متعبًا، استمر في السير ببطء بطول الرصيف. بينما كان يقترب من البناية البيضاء المهيبة للجمعية الملكية -حيث كان يذهب في بعض أيام الآحاد مع قليل من أصدقائه وبالأخص مع نيكولاس فافياذيس في الإسكندرية- كان يتجنب الحديث إلى الرجال ذوي الملابس الفاخرة الذين كان يقفون عند المدخل يثرثرون فيما بينهم بحيوية. كان يمر بجوارهم دون أن ينظر إليهم، كي لا يتورط في أي حوارات تافهة.

لم يكن لديه مزاج أو رغبة في إلقاء التحية التي ربما تقود إلى فتح حوارات بلا معنى معهم، وبالأخص لم تكن لديه الهمة ولا الشجاعة أن ينخرط معهم في أحاديثهم عن الأوضاع السياسية الجارية في مصر ونظيرتها في اليونان. فكان لديهم رأي عن كل شيء، ويتحدثون بثقة متناهية، كم كان يرهقه ذلك اليقين آنذاك.

فكيف سيتفاعل معه الآن...!

منذ فترة كان يشعر في أعماقه بتعب شديد لا ينبع فقط من مرضه. في الشهور الأخيرة كان إيقاعه البيولوجي وطريقته في إمضاء الوقت وبطء ردود أفعاله في أغلب الأمور، كانت ترسم ملامح شخص يجنح نحو الصمت بدلًا من الانخراط في عالم كان يؤمن أنه لم يفهمه أبدًا. نعم، لم يكن بحاجة إلى التورط في أحاديث تافهة.

هكذا، أسرع في خطوته وعندما وصل إلى التقاطع عبر بسرعة إلى الجهة المقابلة. سريعًا وجد نفسه في شارع سيزوستريس التجاري. في الحقيقة لم يتذكر كيف وجد نفسه هنا أو أي شارع قطع حتى يصل إلى هناك. كأن كل هذا حدث في فجوة من الزمن.

راح يسير ببطء تاركًا خلفه الفيلات الأرستقراطية والمتاجر الفاخرة لليونانيين والأجانب من الجاليات الأخرى في الإسكندرية بنوافذها الفينيسية الطراز وبضائعها التي تجذب كل المارة، وبعد ذلك مباشرة عبر محلات الحلوى الكبيرة ذات النوافذ المقوسة.

في إحداها كان قد جلس ذات مرة مع شاب وصحافي واعد منذ فترة، كان قد سكن في هذا الشارع لفترة وجيزة في حياته. كان قد وعده أنه سوف يقابله في زيارته القادمة، لكن يبدو أن الشاب لم يفِ بوعده ولم يكن قسطنطين يعرف أنه سيقبل أن يقابله مرة أخرى. كان شابًّا يافعًا، لكنه كان يمتلك جرأة وكاريزما

تجذب الشباب حوله عندما يتحدث. هؤلاء الذين يعتقدون أنهم يمتلكون الحياة بين أيديهم، وأن كل شيء في الحياة يدور حول ما يريدونه، ولكن...

توقف، لم يكن لازمًا أن يستسلم للغضب والمرارة، الآن لديه أمور أهم عليه أن يواجهها.

عاد به تفكيره مرة أخرى إلى كلمات الطبيب باباستيفانوس، «الحياة دائمًا تفاجئنا»، وكان محقًّا فيما قاله.

ربما إذًا، لا يجب أن ييأس، لن يستسلم بهذه السهولة، لن يقع في فخ الخوف والانهزام. سيقاتل، لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يواجه فيها تحديات وصعابًا في حياته. ولم يستنفد كل ما لديه من قوى بعد. سيغادر على الفور إلى أثينا، سيبدأ بالفعل غدًا في تجهيز أوراق سفره.

لا، لا، لن يحتمل الأمر أي تأجيل آخر. فلم يُحسم شيء بعد، ولم ينتهِ شيء بعد.

الآن ابتعد كثيرًا عن الكارتييه الأوروبي، اقترب من حي العطارين حيث حانات الأنس وبيوت البغاء، هناك حيث يتردد عشاق الحياة، هناك حيث ينتمي.

الخيول الجميلة التي كانت قبل قليل تجر العربات ذات الأغطية الجلدية وتتبختر على الشارع بجواره، تخلت عن مكانها لعربات

الكارو التي تجرها حمير جربة لكنها مغطاة بخرق حمراء وأخرى بألوان فاقعة.

وبينما كانت خطواته تغوص في أعماق الأزقة، بدأت رائحة البحر تختفي شيئًا فشيئًا، وعفونة الشوارع الضيقة التي لا تراها الشمس تتهادى نحو أنفه.

كان يعشق هذا الطريق، لم يكن يمَلُّه أبدًا، وفي كل مرة كان يتأثر به بشكل مختلف عن المرة السابقة، كما لو كانت المرة الأولى التي يقوم فيها بهذه التمشية. بعد أن تجاوز الأحياء الأرستقراطية ومنازل الأثرياء والفيلات والقصور، وصل إلى أزقة معبدة شوارعها بالحجارة، تنبسط كدروب ثعبانية وتشكل متاهة رائعة تصيب بالسُّكر والدوار في الحي الشعبي حتى يصل إلى محلاته الشعبية.

راح يفكر وهو يقطع هذا الطريق أن المرء الذي يقطع نفس الطريق لسنوات طويلة، يكتسب علاقة مختلفة معه، ومع نفس معنى المسافة التي يحددها. الإحساس هذا يتغير في كل مرة، كي يتحمل التكرار مرات ومرات.

الشيء ذاته يحدث مع الزمن وظروف الحياة. تقطع مشوار حياتك، نفس طريق العشق مثلًا، تتغير المعاني مثلما تتغير الوجوه المتورطة فيه، وبالتالي تتبدل وتكتسب إحساسًا وجوهرًا جديدًا في كل مرة، فقط من أجل أن يحصل المرء على إحساس مزيف، أن يخدع ذاته، بأنه كل مرة، كانت هي المرة الأولى.

عبر مربع أزقة آخر. كان الهدوء يهيمن عليه، خشونة الأرض واضحة، تسيطر عليه الروائح، مثلما يحدث دائمًا.

لم يدرك الوقت الذي استغرقه في السير، لكنه أدرك أن الظلام بدأ يحل وأن الشمس الساطعة قد بدأت إجراءات الانسحاب وسلكت طريقها نحو الغروب. وبينما كانت تجرجر أشعتها الأرجوانية من فوق الجدران المتصدعة للبيوت المنخفضة في الزقاق الضيق الذي انتهى إليه الرجل، بسط الغروب بدوره غطاءه الداكن وشق في المكان ألوانًا جديدة وإحساسًا غريبًا يقترب من الغموض، فسره هو بالموت.

ولكن، لو تغاضى المرء عن الحزن والذبول والانهيار الذي يعتري المباني المجاورة، كان المشهد ساحرًا للغاية، كان يشبه لوحة فنية، عمَّقَ الزمن وعدم الاعتناء شقوق قماشها.

انتهى به المطاف في ذلك الحي سيئ السمعة، في الزقاق الضيق الطويل الذي يستضيف الجنات الصغيرة للبغاء، يتصدره صوت كركرة النرجيلة من مقاهٍ صغيرة مترامية على أجناب الشارع. كان الصوت قويًّا حتى إنه كان يغطي على صوت الأغاني العربية الصادرة من جرامافون متهالك في أعماق غرفة صغيرة منخفضة السقف لمنزل صغير بنوافذ مكسورة. تعرقلت إبرة الجرامافون في إحدى الخدوش الكثيرة على الأسطوانة المرقعة فعادت تلعب من البداية.

تمهل خارج الباب نصف المفتوح المقوس أعلاه، وبنافذته الشبكية الذي يقود نحو غرفة بدروم متفرعة تحتية مظلمة. دفع الباب برفق فانفتح عن آخره مصدرًا صريرًا غير محسوس، كأنه ينصاع لرغبته أو كأنه باب أوتوماتيكي أو جهاز سحري يعمل حسب رغبتك دون أي تدخل بشري؛ فتح دون أن يزعج أحدًا من رواد المكان القلائل الموجودين بالداخل.

بعد قليل زاد عدد الرواد ولكي يبدأ المرح والاحتفال الليلي، «العيد الكبير»، كما كان يسميه في أبياته، وحينها تساءل إذا ما كانت لديه المقدرة على المشاركة في الاحتفال.

«صباح الخير يا بك، مضى زمن طويل... لقد افتقدناك كثيرًا» سمع صوتًا مألوفًا حماسيًّا من شاب وسيم كان يعرفه من قبل، عندما كان نبض الحياة القوي يجري في شرايينه، وكان يؤنسه في بعض الليالي. صار الصوت بالطبع أكثر نضجًا وبه الكثير من الخشونة، لكن لا تزال ملامحه بريئة يافعة والوجه ناعم والعينان تنظران إليه بإصرار. إلا أنه تعرف عليه في الحال. «ما زال الوقت مبكرًا، آمل أن نحظى بصحبتكم الكريمة سعادة البك» أكمل الشاب بإيماءة ذات مغزى بينما ابتسامة عريضة راحت ترتسم على وجهه.

أخفض قسطنطين جفنيه وكأنه يوحي بعدم الرغبة أو أنه لم يحتمل نظرة الآخر الإيحائية. «لا، كنت مارًّا فقط» أجاب بحياد دون أن يوجه أي نظرة نحو الشاب واتجه وعزم على المغادرة.

لكنه لم يغادر. حتى رأسه توقف قليلًا كي يستمع مرة أخرى للأصوات المألوفة خارج هذا المكان، ليتنفس الروائح والأبخرة ولكي يقرر إذا ما كانت لديه الشجاعة كي يتخطى عتبته.

خريستوفوروس باباستيفانوس

عُد كثيراً وخذني
أيها الشعور الجميل؛ عُد كثيراً وخذني
عندما تستيقظ ذاكرة الجسد...

أنجيليكي، الصغيرة الجميلة! فكر فور أن وصلته أخبار رحيلها، في الليلة ذاتها التي عاد إلى بيته وشعر بذلك الألم يخترقه، ربما لأول مرة بعد أن عرفها.

كانت فتاة صغيرة عندما أحضروها من ثيسالونيكي إلى بيت أهلها، قصر كبير يَبُعد قليلًا عن الإسكندرية في منطقة وإن لم تكن بعيدة جدًّا عن وسط المدينة، إلا أنها كانت بشكل أو بآخر منعزلة وتبدو وكأنها تقع على بعد سنوات عن كوزموبوليتانية وضوضاء وزحام المدينة.

لم يتعد عمره السابعة عشرة وكانت هي في الرابعة أو في الخامسة عشرة حسبما قالوا له.

يتذكر جيدًا أول لقاء بينهما، في ذلك القصر البعيد مرّا معًا من

المراهقة إلى النضوج كما اكتشفا معًا أسرار الحياة.

طفلان وحيدان في بيت قديم شاسع.

عندما انتهى خريستوفورس من دراسته الثانوية ودخل كلية الطب، اختار أن يبقى في نفس البيت على الرغم من أنه كان بعيدًا على مسافة تستلزم استخدام القطار، وبعد ذلك صار يقطع المسافة بالسيارة التي أهداها له والده كي يذهب ويعود من الجامعة إلى ذلك البيت ليلًا. عادة ما كان يذهب للنوم ثم بعد ذلك يستيقظ مبكرًا من أجل قطع رحلة العودة.

في مرات عديدة فكر في تأجير شقة صغيرة أو حتى غرفة واسعة في وسط المدينة، في حي العطارين على سبيل المثال حيث كان يعيش الكثير من أبناء الجالية اليونانية، أو في حي الإبراهيمية حيث كان يسكن اثنان من زملائه في الجامعة لكن ترك بيت العائلة لم يكن بالأمر السهل بالنسبة له.

هناك العديد من الذكريات، وبالأخص حضور طيف أمه في كل الغرف وفي كل ركن من أركان البيت. بعد ذلك كانت أنجيليكي الصغيرة، التي كانت تعتني بها، الفتاة من ثيسالونيكي بقيت لديهم بعد موت أمها المبكر، توفيت بعد سنة من انتهائه من المرحلة الثانوية. رآها تكبر أمام عينيه، رأى جسدها يتكون ويثمر وينضج وتستدير خطوطه ويتغير تمامًا أمامه شيئًا فشيئًا ويومًا بعد يوم. كانت تنتظره دائمًا خلف البوابة الكبيرة للصالة

المركزية فور أن تسمع صوت سيارته يقترب، كانت تخرج إلى الفناء الكبير للمنزل وتهرول نحوه تستقبله. كانت تعرف، أو على الأقل كان تريد أن تعتقد أنه كان يأتي إلى هنا فقط من أجلها، من أجل حبها وعشقها. وعندما كان يذهب الجميع للنوم في آخر الليل كانت تزوره في غرفته.

حتى بعد موت أمه التراجيدي في حادث سيارة أليم على الطريق الصحراوي الذي يربط بين القاهرة والإسكندرية، لم يتغير شيء، على الأقل في البداية. لم ترحل أنجيليكي، على كل حال أين يمكن لفتاة شابة ووحيدة مثلها أن تذهب؟

بقيت قريبة كي تخدمه وتعتني به، قدر استطاعتها، وبقدر ما يسمح وقته دون أن تشتكي أبدًا أو تتذمر حتى عندما كان يغيب ولا يعود لأيام وليالٍ. كانت تنتهي من أعمال المنزل وكل الواجبات التي يكلفونها بها، وتبقى في غرفتها بجسد يرتعش القلب بداخله في كل مرة ينتابها الخوف والشوق حتى تهدي له أفضل وأجمل ما تملكه امرأة، بالرغم من طبيعتها غير الناضجة آنذاك، فقط لترضيه وتسعده. على كلٍّ ماذا كان لدى فتاة صغيرة مؤمنة لتقدمه كقربان في مذبح الرب كي تحظى بحبه؟ معه اكتشفت أسرار الحياة في أفضل صورها، وهو مهتم بنفسه بشكل أكبر إذ يفوق عمرها بسنوات قليلة. هذا العالم الإعجازي، ما يسمونه العشق، نشوة الحواس تفتح لهم ذراعيها وتخفي في أحشائها المريرة شابين يافعين، رجل شاب وفتاة صغيرة فرا لتوهما من

مرحلة الطفولة.

أمية ليس لديها أي متطلبات لنفسها ولا حتى القليل بل وربما ليس لديها أي آمال أيضًا، ليس لديها سوى أمل واحد؛ وهو عشق هذا الشاب الوسيم ذي الوجه البريء والعينين الزرقاوين اللتين يذكرانها ببحر وطنها وشعره الأشقر المجعد الذي اعتادت على تشبيهه ببحر موطنها عندما يهيج. كانت تقول له هذا بينما تمرر أصابعها في خصلات شعره وعلى وجهه وصدره العاري، كان هو حينها ينفجر في الضحك ويسقط فوقها بنهم يتفحص جسدها. مع مرور الوقت توطدت العلاقة جدًّا بينهما. استسلمت أنجيليكي للعشق بولاء طفل صغير وألاعيب امرأة ناضجة. وهو راح ينهل بنهم وشهوة من رحيق يُقدم إليه بسخاء.

***

لكن التعود والإفراط في العطف والحنان وألعاب العشق، مع الحزن العميق من فقدان أمه بدأ يظهر عليه متأخرًا، فقد ألقى على روحه ثقلًا داكنًا. مزاجه السيئ وكآبته كانا يحبطان كل محاولات الفتاة لتجذبه نحوها. وهكذا انتهى الأمر إلى لقاءات مقتضبة غلبت عليها العادة، بين الحين والآخر في الليل. حتى إن المشاعر بينهما صارت ترهقه وتكاد تخنقه. لم يعد خريستوفوروس يحتمل حبها له، صارت تخيفه وتستهلك قواه وهو الذي لم يهب نفسه لأي امرأة.

ولا حتى للمرأة التي تزوجها بعد سنوات كثيرة.

لم يكن يعرف كيف يحب، وبالأخص لم يكن يريد أي ارتباط عاطفي. في واقع الأمر كل ما كان يهدد استقلاله كان يصيبه بالهلع، كان الأمر بالنسبة له بمثابة تهديد. كرس نفسه وحياته للدراسة والعلم ولم يرد أي شيء آخر أو أي أحد أن يشتت تركيزه عن هدفه. لا شيء ولا أحد! وعندما بدأت ملامح اعتماد عليه ويأس تظهر على الفتاة الصغيرة من الحب من طرف واحد، وكل رهافة مشاعرها ووهج عشقها الذي كان يلفظها ويأبى أن يبادلها أيًّا منها، ولا حتى من خلال ممارسة حب بارد، تعمد أن يرتب أوراق قبوله في جامعة القاهرة حتى يبتعد عنها للأبد، تاركًا إياها لألم الرفض والوحدة لمرة أخرى في حياتها. والأسوأ أنه لم ينبهها لانتقاله، ودون أن يوجه لها أي تحية وداع. لم يرها بعد ذلك وإن مرت ثلاثة عقود. إلى أن علم بوفاتها من أحد الأقارب البعيدين يمتهن المحاماة، والذي جاء ليدير بعض أمور الوراثة التي كلفه بها أبوه قبل وفاته بقليل في الرابعة والتسعين من عمره. ترك له أرضًا زراعية وذلك القصر القديم، بينما لأسرته الجديدة باقي المحتويات.

«ماتت وحيدة بعد أن هجرها زوجها» أضاف الرجل وهو يهز رأسه ببطء ويضم شفتيه. «أولادها أيضًا هجروها منذ زمن. هاجروا إلى إستراليا، هربوا بالسفينة قبل أن يبلغوا رشدهم وفقدت هي أثرهم. لم يحتملوا حياتهم مع أب جلف وجاهل وأم

بعقل غائب على الدوام».

خبر وفاتها نزل عليه كالصاعقة. لم يقل شيئًا. فقط تخيلها على ما كانت، تلقي عليه التحية من النافذة الملونة. شكلها كان كما يعرفها عندما أحضروها من اليونان لأول مرة كي تعتني بأمه، ولكي تؤنسه بالطبع، استحضر صورتها الحية في ذهنه كاملة.

تذكر وجهها الشاحب ونظرتها المرعوبة في البداية، في تلك الأيام الأولى حتى اعتادت على البيئة الجديدة والغريبة، وكل ما هو غير مألوف بالنسبة لطفلة صغيرة ليس لديها أي خبرات. حُفِر الخجل والخوف في عينيها.

مع فقر وعوز عائلتها، جاء موت أمها ليجبر أباها أن يرسل أولاده خارج البلاد، إلى عائلات مختلفة ذات صلة قرابة قريبة أو بعيدة. كانت مصر من نصيب أنجيليكي. على الأقل هناك ستكسب قوتها في بيئة نظيفة ومتحضرة وتعيش حياة كريمة بجوار أقاربها الأثرياء، قاله لها أبوها وهو يعدها. ربما كانت محظوظة وتتزوج أحد اليونانيين الأثرياء من تجار القطن أو أصحاب مصانع الدخان.

«هناك في مصر يأكل الناس بملاعق ذهبية» قال لها وهو يودعها في الميناء. «لا تقلقي علي ولا تحزني لأجلي يا ابنتي!» ربما كان يعرف أنه لن يراها مرة أخرى، لكنه كان يريد أن يصدق أن هناك في تلك البلاد القريبة البعيدة، هناك قدر آخر يحمل لها

حظًّا أوفر في الحياة أفضل مما يستطيع أن يوفره لها أو مما كان ينتظرها في أرياف ثيسالونيكي الجدباء.

عندما رآها خريستوفوروس للمرة الأولى، كانت ترتدي فستان أزرق باهت يغطي جسدها النحيل الهزيل. لم يكن لديها أي متاع، فقط حقيبة صغيرة من القماش تحملها في يديها بها بعض الوثائق وأشياء قليلة تخصها.

«ما اسمك؟» سألها في الليلة الأولى التي وصلت فيه إلى بيتها.

«أنجيليكي يا سيدي» أجابته بلكنة بدت غريبة عليه.

بالكاد استطاع أن يكتم ضحكه حتى لا تنهره أمه لسوء أدبه أمام كائن ضعيف مثل أنجيليكي. ألا يكفي يتمها، كانت أمه تقول له باستمرار. تذكر جسدها الضيئل الشاحب الضعيف مستسلمًا لمصيره، كما بات هذا الجسد مستسلمًا للأبد، وهكذا كانت تستلقي بجواره عارية مطيعة ومستسلمة كلية لسيطرته وجموحة الشبابي، وتنظر إلى المصباح الشاحب المعلق من سقف غرفته الصغيرة حيث كانت تزوره بالليل. «هل تحبني؟» كانت تسأله باستمرار بسذاجة طفولية تعززها البراءة والخوف بينما كانت على وعي تام بتواضع حالها ومنشئها وجهلها.

لم يجبها.

شعر بالرغبة في الضحك مرات عديدة إثر التعبير الحالم

المرتسم على وجهها، هكذا عندما تسأله بعفوية وبيأس تقريبًا. في مرات أخرى بين الجد والهزل ولكي يختبر صبرها وربما كي يجرحها كان يقول لها: «تصبحين مضحكة عندما تتحدثين بهذه الطريقة... تعبيرات وجهك تصيبني بالضحك الشديد».

كانت تنظر إليه بعينين قلقتين ممتلئتين بعلامات الاستفهام. لم تكن أبدًا متأكدة إذا ما كان يداعبها، أو كان يعني تلك الكلمات القاسية التي يوجهها إليها بنظرته الباردة التي كانت تزداد جفاءً مع الوقت، ولما كبر كان يتخلى عن براءة شباب غير ناضج. كانت متأكدة من أمر واحد وهو أن تلك النظرة التي كانت تحاصرها في البداية بالمودة والعطف غابت للأبد.

كانت بالطبع صغيرة جدًّا، وعديمة الخبرة في الأمور التي تتعلق بالقلب حتى تستوعب حقيقة مغزى القول أو الفعل أو أي مشاعر كان يُكن لها، أو ما هي نواياه. ولم يقبل في مرة، ولا في أي مرة أن يجيبها على سؤالها.

على أي حال، كانت تنفض عنـها تلك الأفكار بسرعة وذلك الحزن الذي يحاصرها. حتى عندما كـان مزاجه وسلوكه يتغيران بشكل مفاجئ نحوها ويتحول إلى كائن بارد وشبحي ويصعب الاقتراب منه، كانت هـي تصـر وتلتمس له الأعذاروتتعامل معه بكل حسـن وطـيبة. حينها صار خريستوفوروس صعـب المنال والمـراس وراح يصـب سخرية خالصة نحوها غير معني عـلى الإطـلاق بمشاعرها.

كما لو كانت طيبتها نحوه تستفزه.

هي لم تعترض تقريبًا أبدًا.

كانت تعتقد أن الرجال هكذا عندما يكبرون، يصيرون بلا رحمة مثل أبيها. ولو تجرأت وعبرت عن أي شكوى إزاء أي سلوك غير عادل من جانبه، كان يوبخها بقسوة كأنه يوحي لها بأنها ليس لديها أي خيار آخر سوى أن تقبل بهذا. ذلك القبول كان علامة ودليلًا بأنها مكرسة له تمامًا وأنها كانت تحبه، كانت تقول له. وهي كانت تقبل طواعية وفي صمت شاعرة بالذنب لهفوتها في إبداء الشكوى أو لأنها أغضبته أو أثارت غضبه بسبب تهورها واستهتارها.

في العطلة الأسبوعية عندما كان خريستوفوروس يبقى في المنزل، لم تكن تتركه. كانت تؤنسه وهو يذاكر وإن لم يكن يسمح لها بأن تلمس كتبه ولا أن تنفض عنها الغبار. كانت ترافقه دون أن تتعلم أبدًا أي شيء على الإطلاق. كانت فقط الصور الغريبة غير المفهومة التي كانت تلاحظها من بعيد وعادة بتعبير اشمئزاز على وجهها.

«الإنسان عارٍ تمامًا عن لحمه» كان يقول لها خريستوفوروس ضاحكًا من سذاجتها ومن تعبير وجهها الكوميدي، وكعادته غير مكترث لمشاعرها.

كانــت تراقبــه من بعيد وتنــفذ كل رغــباته، لكنه أبدًا لم يكن

يشاركها أيًّا من الأشياء التي يحبها فيما عدا في الليالي. فقط في الليل كانت له. حينها فقط كانت الفوارق تذوب. الأدوار تتغير وكان يقوم هو بدور المراقب. كان يراقب جسدها، يتفحصها بعناية شديدة، كان يعرف كل تفصيلة في جسدها، كان يراه وهو ينضج ويستدير. لكنه كان حينما ينظر لها كان يسترجع كل مناطقه الجميلة في ذهنه، كان يتخيل بياض جلدها ودفء جسدها وحينذاك وجهها الذي يزداد حلاوة ويشع ضوءًا غريبًا، فترتسم على وجهه ابتسامة ذات مغزى يوجهها لنفسه.

توطدت علاقتهما عندما ماتت أمه في ذلك الحادث.

حينها صار كل منهما يواجه وحيدًا الأشباح الصامتة للبيت المظلم الذي أصابه التصحر. والده بدأ يغيب عن البيت بشكل أكبر. كان يختفي لأيام وأسابيع ولم يكن يعرف أحد متى يأتي ومتى يغادر. لكن عندما كان يعود كان هو أيضًا يشبه أشباح القصر الخاوي؛ فناء خاوٍ ووجود شفاف، بصعوبة بالغة كان يتبادل بعض الكلمات مع ابنه ثم يعود مرة أخرى إلى نفس الصمت ونفس الحضور الشبحي.

في حقيقة الأمر كانت هذه الوحدة في صالحهما، شابان في مقتبل العمر وحيدان في بيت كبير وحزين ولا سيما في الأسابيع الأولى للحداد. استغلا وضع الحزن والحداد لإفراغ طاقة حسية وشغف مكبوت جامح قبل أن يسيطر عليه الملل والكآبة والحزن.

بدأ خريستوفوروس يشعر بالملل. في الحقيقة، لم يعد نفس الشخص. كآبة البيت والهدوء الصامت الغريب الذي يسيطر على دواخله، والأثاث المغطى بالملاءات ومرايا الأم القديمة التي بدأت ترهقه وتثقل قلبه وتصده. لم تعد لديه رغبة في العودة إلى ذلك القصر الحزين.

لكن أنجيليكي كانت دائمًا لطيفة وطيبة الخلق معه، على وجهها الجميل الغض دائمًا ابتسامة هادئة مشرقة، كيف يمكن أن يهجرها؟ أين سيتركها؟ أين ستذهب وهي لا تعرف أي أحد في هذا العالم الجديد الغامض المبهم حيث أتوا بها دون أن يسألها أحد؟ على الجانب الآخر كان ينتظر خريستوفوروس مستقبل باهر لم يكن ليضحي به من أجل أي أحد على الإطلاق!

وهكذا بدأت زياراته للبيت الكبير تقل، في البداية كانت حجة ضغط العمل والدراسة المستمرة كما كان يقول لها، بينما زياراتها إلى غرفته صارت على قلتها وقتما يشاء، وقلما كان يرد لها تلك الزيارات التي صارت تضايقه. لم يعد خريستوفوروس يحتمل زياراتها ولا ولاءها وإخلاصها. صار حبها السامي والمبالغ فيه يخنقه فلجأ في البداية يتحايل على ضيقه ويخفيه، ثم شيئًا فشيئًا لم يكن يتردد في إظهار ضجره منها بكل وسيلة وفي كل فرصة غير غابئ على الإطلاق بمشاعرها ولا بحزنها وشوقها للقائه.

كان يكفيها أن تراه، أن تكون معه، بجواره في نفس الغرفة كلما وبقدر ما تستطيع. أن تتابعه عن قرب، أن تشعر بدفء جسده بجوارها، بأنفاسه بالقرب من أنفاسها. هكذا فقط كان خوفها من أن يتركها يتوارى ولو مؤقتًا حتى المرة القادمة، حتى زيارته القادمة. لكن صار غيابه يطول وتمر العطلات الأسبوعية تباعًا دون أن يظهر في القصر، شعرت أنجيليكي بأن هناك علاقة أخرى تهددها بقوة فبدأت تشعر بالذعر.

«لا أريدك أن تبني آمالًا واهية» صرح لها ذات يوم بجفاء وحسم. «لقد تغيرت الأمور ورحلتنا معًا وصلت لنهايتها».

«ماذا تريد أن تقول؟».

«ألا تفهمين؟ يا أنجيليكي، حُسم الأمر، لقد انتهى كل شيء بيننا».

كانت البرودة مخيفة.

قالت إنه قاسٍ ذو مشاعر ميتة، إذ إن وجهه بقي متجمدًا دون أي تعبير.

«لقد خانك التقدير».

«أي تقدير؟ ماذا تعني؟».

«لقد خانك التقدير، هذا ما أعنيه» أربكها مجددًا، هذه المرة بغضب مكتوم أثار غضبها للغاية.

«وما هو الحب؟ أهو ميزان في رأيك؟» تجرأت وسألت.

«لم أعد أحتمل الاعتياد. تعبت، لا بد أن أفكر في حياتي، في مستقبلي».

«وهل أمثل لك عائقًا؟».

هذه المرة لم يبذل أي جهد في الإجابة عليها.

«كيف يمكن لأحد أن يزن الأمور في الحب؟ كيف يزن المرء أو يقيس مشاعره؟» قالت بشجاعة غير مألوفة لديها وبنضج امرأة خبيرة، لكن لمرة أخرى لم تحصل على أي إجابة.

رآها تبحث بيأس عن بقايا مشاعر مرهفة بعينيها الواسعتين، لكن كان واضحًا أنها لم تجد أي أثر لشيء كهذا في أي مكان. فقط بعض إيماءات الشفقة. هي التي أحبته بكل قوى قلبها البريء، صارت لعبة بين يديه. يستطيع أن يفعل بها ما يريد، لكنه اختار أن يحطمها، أن يلقي بها جانبًا وفي فترة حاسمة في حياتها.

لم يضع في اعتباره وجدانها الهش، حقيقة أن ليس لها هناك أحد في هذه الحياة غيره. فقط اختار أن يحطمها، أن يفتتها، بإصرار مجرم بارد الأعصاب ومتمرس. كيف سيمكنها أن تجد القوة كي تستمر وحيدة في هذا العالم، راحت تواجهه وهي محطمة.

«هذه ليست مشكلتي يا أنجيليكي...».

عندما وجد خريستوفوروس الشجاعة كي يرحل للأبد، كانت هي بالفعل شخصًا محطمًا. روح محطمة، روح ضيفة، لعبة مكسورة بين يدي الحياة.

والفراق كان أصعب وأقسى من آخر حديث بينهم.

«متى؟» الكلمة الوحيدة التي استطاع نطقها سائلًا محامي والده السكير التعيس، فيليبوس أناستاسياذيس الذي يتولى قضية الوراثة عندما أخبره بموتها.

«قبل بضعة أشهر. المسكينة ماتت وحيدة».

«لقد وجدها الجيران بعد عدة أيام...» أجابه وهو يعقد حاجبية باستياء، ربما تخيل صورتها. «أنا ما زلت أتذكرها يا خريستوفوروس، كما لو أن بالأمس».

نظر خريستوفوروس للرجل لكنه لم يعلق على كلامه، لم ينطق بكلمة، كعادته دائمًا، لجأ إلى الصمت. على أي حال لم يكن يُكِن أي تعاطف أو ود تجاه الرجل الذي تسبقه سمعته الخبيثة بين الجالية لاستهتاره وسهراته الحمراء في بيوت البغاء في الإسكندرية، حتى إنه بدد الثروة التي تركها له أبوه وأجداده. لو لم يكن يعرفه وهو طفل فقد كانا يلعبان سويًّا وهما صغار،

سنوات راحة البال والبراءة، وكانت عائلاتهم شركاء في محلج قطن، لم يكن ليدخله بيته.

بعد ذلك، تلك القرابة البعيدة التي كان يشير إليها فيليب بفخر بين الحين والآخر. كما لو كان الأقارب يعنون شيئًا بالنسبة لخريستوفوروس. لهذا الحد لا يعرفه!

وهكذا، حرص على أن يخفي مشاعر عنه بكل وسيلة حتى لا تخونه. حتى حزنه لموت أنجيليكي لم يسمح له بالطفو من أعماقه.

لم يسأل عن أي تفاصيل تخص حياتها الزوجية أو موتها. ولم يسأل من تزوجت ولا كيف كانت تعيش حياتها ومن أين تنفق، عندما أجبرها على مغادرة البيت وبعد أن اختفى تمامًا من حياتها. حتى قبل أن يرحل لدراساته العليا لم يبذل أي جهد كي يودعها. لم يترك لها رسالة واحدة ولا كلمة وداع تقليدية جافة من فرط خوفة أن تتبعه. بعد عدة أشهر، علم أنها جمعت أغراضها القليلة وذهبت إلى بيت آخر في وسط المدينة، كي تخدم عائلة سكندرية أخرى لكنها لم تبق كثيرًا للعمل هناك. انتقلت أنجيليكي إلى القاهرة وعندما عاد خريستوفوروس من دراساته العليا في فرنسا سمع بمحض الصدفة أنها قد تعرفت على أحد هناك وتزوجته. كان رجلًا مجهول الهوية، لم يكن يعرف عنه أحد شيئًا، هكذا قالوا له. ومن حينها لم ترد إليه أي أخبار عن وجودها

حتى ابتلعها النسيان. نسيها خريستوفوروس أو كاد ينساها.

لا، لم يسأل المحامي عن سبب موتها ولا عن تفاصيل زواجها أو حياتها من ذلك الشخص المجهول الذي لم يعرفه ولم يشأ أن يعرفه. ولم يسأل حتى عن الأولاد التي أنجبت. لم يسأل عن أي شيء. لم يشأ أن يعرف عنها شيء.

لكنه شعر لوهلة بشيء أشبه بنصل يثقب صدره، شيء عابر. ثم لجأ بعد ذلك إلى كتبه ودراساته، مثلما كان يفعل دائمًا قبل أن يسيطر الشعور بالذنب على ضميره.

إلا أن ذكراها كانت كافية كي توقظ في عقله كل تلك الذكريات المدفونة لسنوات طويلة، عقود كاملة وربما بعض الشعور بالذنب، بالأخص الشعور بالذنب، لم يستطع أبدًا أن يقاومه، لكن ما استطاع القيام به هو أن يدفنها بداخله.

والآن حين جاءه خبر موتها حك كل الجروح القديمة، ونبش كل تلك الذكريات حاملًا معه ذلك الإحساس القديم الذي لم يشعر بمثله أبدًا بعد ذلك.

منذ ذلك الحين واتخذت حياته طريقًا مختلفًا مشتتًا للغاية، مليئة بفراغات عاطفية ضخمة كان يأبى بكل إصرار أن يتتبعها ويفحصها ويكشف عن أسبابها العميقة، بالرغم من علمه ونجاحاته الكبيرة في الحقل العلمي. بقي رجلًا يحمل نواقص نفسية واضحة لم تملأ أبدًا، وليته كان هذا فقط، لكن هذه

النواقص صارت تزيد وتتضخم مع مرور الزمن.

في واقع الأمر ولا حتى زواجه بعد سنوات استطاع أن يعوض هذه النواقص، بالرغم من أن زوجته كاليوبي كانت جميلة وتصغره بسنوات كثيرة. وماذا لو لم يكن ينتمي لتلك الطبقة المخملية للجالية، كانت امرأة لطيفة عذبة الحديث مثقفة وحكيمة وكانت على قدر مسؤولية الزواج من رجل له وضعه الاجتماعي والحرفي له متطلبات كثيرة.

إلا أنه وبالرغم من محاولاته المضنية، لم يستطع أبدًا أن يشعر مرة أخرى بالإحساس الذي كان ينتابه مع أنجليكي الصغيرة، بالرغم من شباب زوجته. كان هناك إحساس لم يحيَ ولم ينتعش أبدًا في حياته مع كل النساء التي عرفها في حياته.

فيليبوس أناستاسياذيس

الثانية عشرة والنصف. مر الوقت سريعًا
منذ التاسعة حين أشعل المصباح
وجلست هنا. جلست دون أن أقرأ،
ودون أن أتكلم.

اقتربت الساعة من التاسعة، لكن الرجل لم يكن ليترك الكأس من يده. في السنوات الأخيرة كان يعيش حالة غريبة من الانطواء، حالة من الملل الأحمق المسيطر، بينما كل الأشياء التي كانت تهمه من قبل بدأت في فقد معناها ولم يعد هناك ما قد يشعل حماسه سوى المشروب، لم يكن يفعل سوى الشرب ومراقبة أحداث الحياة التي تمر من أمامه ساخرة، بينما هو يبتسم لها باستسلام. قبل ذلك بقليل قام بزيارة خاطفة لابن موطنه وجاره في شارع ليبسوس، وشرب معه كأسًا من الكونياك. ومن حينها لم يتوقف عن الشرب.

راح يفكر الرجل. منذ أن انتقل إلى ذلك الشارع وتوطدت علاقتهما. كانا يقضيان أوقاتًا طيبة معًا يعلقان على كل ما هو جديد من أحداث وأحيانًا يتحاوران حول الجالية اليونانية

بالمدينة. فحيث يسكنان في قلب المدينة كان إيقاع الحياة صاخبًا وقصص العشق والغرام مترامية في كل الأنحاء بكل أشكالها وألوانها. إلا أنه اليوم لم يعجبه مظهره. بدا له شاحبًا ومتعبًا وبالرغم من الوصفة الطبية التي أعطاه إياها خريستوفوروس بدا وكأن وضعه الصحي يزداد سوءًا مؤخرًا بعد زيارته الأخيرة له قبل أسبوعين.

بالطبع وبالرغم من إجهاده الواضح استطاع أن يتذكر آخر الفضائح الطريفة التي تحوم في الحي، ولم يهمل أن يحكي له آخر أخبار الجالية وأسرار أعضائها قبل أن ينقل له بين المزج والجد ومزاجه غير الرائق نبأ استعداده للسفر الوشيك إلى أثينا.

طرق رتيب قطع سلسال أفكاره على الباب. ربما يكون الخادم، فكر ثم راح سأله إذا كان يحتاج إلى أي شيء.

بالأخص في الأيام الأخيرة لم يكن يتركه في هدوئه ولا حتى بالليل. وكأنه كان يشعر بسعادة غريبة في مضايقته وباهتمامه المبالغ ومقاطعته من تأملاته وخرق عزلته التي قرر أن تكون رفيقه الوحيد في السنوات الأخيرة. كم مرة قال له إنه لا يحب أن يضايقه أحد بعد أن انسحب في صمت من العالم.

دون أي رغبة في الحوار أو نية في أن يؤنب العجوز على قلقه الشديد عليه وظهوره الدائم في ملجأ عزلته، قام فيليبوس أناستياذيس متململًا ليفتح الباب. داخل الممر المظلم أمام الباب

ظهر خيال الرجل.

لا، لم يكن خيال الخادم النحيل الطويل. كان خيال صغير يقف في الممر المظلم يرمي بظله على الدرج، اتضح بعد ذلك. كان خيال امرأة، امرأة صغيرة الحجم ملفوف جسدها بجلابية سوداء بينما يغطي اليشمك وجهها.

«من أنت؟» سألها الرجل بحدة.

تبع سؤاله صمت للحظات.

«أنا مديحة» استطاع أن يميز وجهها وصوتها المبحوح المرتعش في الظلام.

«مديحة؟» كرر الرجل مندهشًا وندم على الفور لانفعاله لأنه اعتقد أنه لم يسمع بوضوح.

«دعني أدخل يا بك» قالت له المرأة متوسلة تقريبًا وهي تتقدم بتردد نحو الباب، وعندما استمر الرجل بالتحديق بها بعصبية كررت طلبها بصوت أكثر قوة.

كما لو أنه استفاق من خدره فجأة، تحرك فيليب متزحزحًا من مكانه ليتركها تمر. حينها دخلت المرأة بسرعة ووقفت في وسط الغرفة. مرت وتركت خلفها عبيرًا طيبًا أنعش وجهه المندهش. منذ شهور وهو يسمع عن جمال تلك الصبية النادر. كانت فائقة الجمال كما تقول الإشاعات حتى إن أبويها عجلا بزواجها قبل أن

تتم الرابعة عشرة من عمرها.

«أغلق الباب بسرعة سيدي البك» قالت الصبية بصوت أقرب إلى الهمس التي دخلت إلى الصالون المعتم. «من فضلك، لا يجب أن يراني أحد». كان خوفها واضحًا.

أغلق فيليب الباب بسرعة وتوقف قليلًا ينظر إلى الفراغ عبر نافذة الباب الشبكية. الزجاج خلفها كان يخفي الظلام الذي تمدد لمرة أخرى في ممر الدرج. وقف قليلًا بلا حراك ممدًا رأسه نحو الباب يترقب صدور أي صوت وفور أن تأكد أن خادمه لم يتبعها أدار ظهره ونظر إليها مرة أخرى، هذه المرة بعينين جاحظتين مليئتين بالتساؤل والدهشة.

«ماذا يجري؟» سألها بحدة.

«أحتاج إلى مساعدتك يا سيدي البيه» تمتمت قائلة بعد لحظات.

تفحصها الرجل من رأسها لأخمص قدميها. ومع توتره من زيارتها المفاجئة والمخاطر التي ربما تخفيها تلك الزيارة، قد بدأ فضوله يتزايد. أي نوع من المساعدة تريد منه في وقت متأخر كهذا من الليل ولماذا تخاطر بسمعتها وحياتها ربما كي تأتي إليه في بيته؟

«أي نوع من المساعدة؟» سألها بضجر وعندما لم تجب قال لها بنبرة تنم عن ضيق وتأنيب في الوقت نفسه: «تعرفين ماذا

يمكن أن يفعل زوجك لو عرف أنك جئت إلى هنا وحدك في ساعة كهذه؟».

هزت الشابة رأسها بالنفي دون أن تقول شيئًا. بعد ذلك رفعت جفنيها ببطء ثم قامت بإيماءة حادة تعني شيئًا لم يفهمه ثم قالت: «اليوم لحسن الحظ هو غير موجود. سيبيت لدى زوجته الثانية. أرهقته شكواه...». توقفت، شعرت أنها تثرثر. «سيقضي الليلة معها، سيبقى هناك حتى الصباح. هذا من حسن حظي يا سيدي البيه».

استمر فيليب في النظر إليها مبهوتًا.

مديحة التي شعرت بقلقه أكدت له لمرة أخرى: «لا تقلق يا سيدي، أنا متأكدة أن أحدًا لم يرني وأنا أغادر المنزل ولا وأنا أدخل منزلك ولا حتى خادمك».

انتبه لأول مرة لنبرة صوتها، صوت شبابي تقريبًا صوت فتاة صغيرة ولم يستطع أن يقاوم فكرة التساؤل فيما يخبئ اليشمك، غطاء الوجه القبيح هذا ثم اقشعر بدنه كله عندما راح يفكر في ملمس الجسد الذي يتخفى تحته.

«سامحني، فأنا في الحقيقة لم أشأ أن أقلقك يا سيدي البيه» استمرت الزائرة في الكلام غير دارية بما يجول في خاطر الرجل. «لكن ليس هناك مكان آخر أذهب إليه».

«ما الذي يحدث إليك؟ هيا اشرحي لي».

بات واضحًا أن بقايا صبره قد نفدت ونبرة صوته ازدادت خشونة. وربما هذا السلوك الحاد والجاف نحوها لم يكن في الحقيقة مفاجئًا أو محض صدفة، ولم يكن بالضرورة نتيجة لزيارتها المفاجئة.

«أحتاج إلى مساعدتك يا بيه» كررت مديحة هذه المرة متوسلة.

تفحصها قليلًا دون أن ينبس بكلمة. تمنى لو يمد يديه وينزع عنها هذا الغطاء التعيس الذي يحجب عنه رؤيتها لكنه كبح جماح أفكاره الخطرة لمرة أخرى، رفع يده قليلًا وسألها: «أي مساعدة؟ ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك؟» ظل فضوله ملحًّا بالرغم من تراجع شعوره بالمفاجأة. كان فضوله يتزايد لحظة بلحظة.

تراجعت المرأة خطوة للخلف. «بواب العمارة المقابلة قال لي إنك محامٍ وإنك تتولى قضايا مصريين إزاء أجر بسيط. هكذا تشجعت لآتي إلى هنا كي أطلب مساعدتك سيدي البيه».

«أي نوع من المساعدة؟ هل جئت لأجل استشارة قانونية؟».

رفعت مديحة نظرتها نحو الرجل لمرة أخرى وقالت: «بالضبط يا سيدي، لكن لو أنني أسبب مشاكل، إذًا...».

«لا، ليس هكذا» قاطعها. «لكن الوقت متأخر، ولو أن أحدًا رآكِ وأنتِ تدخلين هنا في منزل رجل غريب، أجنبي ثم أبلغ زوجك،

العواقب كما تتخيلين، ستكون وخيمة...» قال مشددًا على كل حرف في الجملة الأخيرة.

«لا أحد. لم يرني أي شخص يا سيدي البيه» أكدت له مرة أخرى مديحة بإيماءة صغيرة. «أنا متأكدة تمامًا. كنت شديدة الحذر، كنت حذرة جدًّا» كررت الفتاة وهي تشيح بنظرها نحو الأريكة.

في هذه اللحظة أدرك فيليب مدى سوء أدبه :»معذرة. تفضلي بالجلوس...» قال لها وهو يشير برفق نحو الأريكة خلفها.

بحركة صغيرة كطفل صغير جلست الصبية على الأريكة وهي تسوي بعصبية الملاية التي تلفها بإحكام على جسدها وهي تبتسم بعينيها كأنها تفكر في شيء. بعد ذلك مباشرة وبحركة مفاجئة كانت كأنها نتاج تفكير بضع ثوان رفعت يدها وتحررت فجأة من الخجل ونزعت اليشمك عن وجهها.

الضوء الأصفر للمصباح على الطاولة بينهما طبع بوضوح وبلا أي عوائق وجهها في عينيه الجاحظتين. كان وجهًا يمكن للمرء أن يقرأ عن بساطة وكمال ودقة الملامح فقط في قصص التراث الشرقية. لون بشرتها الفاتح بالرغم من ضوء المصباح إلا أنه يظهر جاذبية ملامحه الأوروبية تقريبًا.

تخيلها أجمل من هذا لكنه لم يستطع أبدًا أن يتخيل كمال تلك الملامح التي ظهرت فجأة أمامه وداعبت أحاسيسه الميتة

تقريبًا... لكن نظرتها هي ما أسره أكثر من رسمة عينيها أو لونهما، والذي كان من الصعب تحديده بسهولة. نظرة تعبر بكل بلاغة عن مكنون روح بريئة بائسة تطلب المساعدة وتتوسل للنجاة.

«ماذ يحدث لك؟» استطاع أخيرًا أن يسأل محتفظًا بضبط النفس كي يخفي التوتر الذي أثاره هذا الجمال الفائق، ولا سيما البراءة التي يخفيها. فبالرغم من الإعجاب الواضح كان ثمة شعور آخر يسيطر. إحساس مرهف ربما يشعر به لأول مرة.

تحركت مديحة على الأريكة بعصبية وتوتر وقالت بوضوح وسذاجة طفل صغير: «أنا ذهبت للمدرسة يا سيدي البيه».

لم يتحدث الرجل، استمر في النظر إليها ثم أشار لها بالاستمرار حتى يفهم ما الذي تريده بالضبط، وما هو الشيء الذي تطلبه.

«أعني أنني أعرف كيف أقرأ وأكتب...».

«حسنًا» تمتم فيليب وكأنه يفقد صبره.

«لكن زوج أمي، رحمه الله جعلني الزوجة الرابعة لزوجي دون أن يسألني أو حتى يسأل أمي...».

لم يعد يستمع إليها. براءتها الطفولية وهي تنطق حروف كلماتها زلزلت كيانه. كانت صغيرة للغاية، طفلة تقريبًا. بعد ذلك وعندما نظرت إليه الصبية بتساؤل متفاجئة بتعبير وجهه

المبهوت أشار لها بالاستمرار بينما راح ذلك الشعور الجديد بالنسبة له يتضحم في داخله شيئًا فشيئًا حتى طغى تمامًا على كل شيء. «ثم؟».

«... ثم إنني لم أعد أستطيع تحمل الإهانة أكثر من هذا سيدي البيه» أخرجت ما في جعبتها الصغيرة وابتسمت مجددًا بعينيها.

أخذ فيليب نفسًا عميقًا ثم قال وهو يزفره بشيء من عدم التصديق: «إهانة؟».

كيف كان وقع هذه الكلمة غريبًا في هذا المكان المظلم. صداها نتج عنه شعور غريب في داخله. رفعت مديحة نظرتها ببطء ونظرت إليه بعمق. بالرغم من أن كل شيء فيها، وحضورها كانا يعلنان عن جرأة وشجاعة، كانت تعبيراتها تبين تواضعًا غير محسوب ورقيًّا يمكن أن يقابله على وجوه راهبات كاثوليكيات.

«ماذا تعنين؟» سألها الرجل مرة أخرى بنبرة أقل حدة محاولًا في نفس اللحظة يهدد المشاعر والأفكار التي راحت تفيض في عقله.

ارتباك الفتاة كان واضحًا لكن فيليب لم يكن يعرف بالضبط فيم يجب أن يفكر أو يخمن.

«أريدك أن تكوني أكثر وضوحًا من فضلك» طلب منها بنبرة تمس حدود دماثة جعلته يتساءل هو نفسه من أين له هذا. في

داخله بالطبع كان يشك في أمور عديدة لكنه أراد أن يتأكد.

تحت إلحاح نظرته قامت الصبية بمحاولة ثانية للتحدث. «سيدي البيه» تمتمت «لا أستطيع أن أفسر لك بالضبط... أعني أنه لا يمكن...». ثم انفجرت بطريقة أشبه بريح مكبوتة وجدت مخرجًا بالنهاية «أعني أنني لا أحتمل إهانة أكثر من هذا يا سيدي الأفندي، الإهانة الزوجية... حقيقة، لا أستطيع أن أشرح لك أكثر من هذا... لكن ساعدني، أتوسل إليك!».

فهم فيليب، أو بالأحرى تأكد. لكنه كان يعلم أيضًا أنه بين رجل من أهل البلد وزوجته حتى ولو كانت زوجته الرابعة وبالغة ليس من السهل أن يتدخل أحد، ولا سيما إذا كان أجنبيًّا.

سافر ذهنه بسرعة البرق للماضي، لحالة شبيهة وحزينة. تذكر أمه، امرأة لم تحتمل الإهانة وغادرت بطريقة مدهشة وتراجيدية في الوقت نفسه، تاركة خلفها فراغًا روحيًّا وجرحًا لم يندمل. عندما شعر بذكرى انتحار أمه تمزق أحشاؤه، طردها بسرعة وصب تركيزه على الموضوع الذي ظهر أمامه.

لكن حذره لم يستمر سوى لبضع لحظات لأن قراره ظهر في عيني العقل والمنطق جليًّا. «سامحيني وبالرغم من أنني أريد مساعدتك إلا أنني لن أستطيع».

حركت رأسها بعصبية ونظرت إليه بعمق مرة أخرى لكنها لم تنطق بكلمة. كان يأسها قد شغل الظلام في المكان. شكل

الخوف عقدة في حلقها ومنعها عن التفكير والكلام. بعد لحظات وكأنها قد وجدت الشجاعة مرة أخرى استطاعت أن تسأله بصوت مرتعش: «لماذا يا سيدي البيه؟ أرجوك ساعدني».

لم يكن فيليب متأكدًا، لكنه ظن أنه رأى دموعًا تتجمع في ركني عينيها. لكنها لم تبك، استمرت في النظر إليه بعينين جاحظتين مليئتين بالرجاء والأمل.

«من الأفضل أن تذهبي لشخص آخر، ربما محامٍ من أبناء البلد، لكن اسمحي لي أن أقول لك إنه سيكون غاية في الصعوبة أن تحصلي على حقوقك...».

تفحص بعناية شديدة وجهها الغض النسائي تقريبًا. الآن عقدت حاجبيها وفقدت نظرتها الكثير من بريقها وحيويتها.

«تحتاجين لشجاعة أكثر كي تواجهين مشكلة كهذه» استمر في الكلام بنبرة ناصحة وتقريبًا أبوية في صوته وهو الأمر الذي أخافه مجددًا. «والنتيجة مع الأسف يمكن التنبؤ بها. أريد مساعدتك، كوني متأكدة من هذا، لكن الأمر محسوم».

«لكن يا سيدي البيه...» قامت مديحة بمحاولة أخيرة لتثنيه عن قراره لكنها لم تستطع. ثمة بكاء مكتوم حجز كلماتها في حلقها فمنعها عن الكلام.

كان يأس الفتاة جليًّا، انتبه فيليب لهذا لكن كان من المستحيل

أن يقبل هذه القضية. حتى ولو كان محاميًا من أهل البلد، مصريًّا، سيكون من الصعب جدًّا أن يقبلها. إن حقوق النساء المصريات تقريبًا معدومة ومحاولة كهذه يمكن أن تؤدي بكليهما إلى الدمار.

«أعتذر بشدة، لكن مستحيل».

عندما غادرت الفتاة هاربة كما جاءت، لم يستطع فيليب أن يخرج من ذهنه وجهها البريء وتعبيره البائس وحزنها عندما رفض مساعدتها. كانت صبية صغيرة، صغيرة جدًّا، طيبة وبريئة كزهرة برية. كيف ذكرته بالفتاة التي تبنتها أم خريستوفوروس، هكذا بدت عاجزة ويائسة عندما تعرف عليها لأول مرة في قصرهم. لكنه لم يستطع أن يساعدها في شيء... قبل سنوات قليلة كان من الممكن أن يحاول، لكن الآن لم يعد لديه المقدرة على خوض أي حروب، ضعفت قواه وتخلت عنه الشجاعة والجرأة. هذا بالإضافة إلى أنها لم تكن المرة الأولى التي يرفض فيها قضايا، قال في نفسه مواسيًا. في الفترة الأخيرة لم يكن يفعل شيئًا سوى أن يرفض. الشيء الوحيد الذي كان قادرًا عليه هو قضايا الميراث، لكن حتى عمله في هذه القضايا كاد يكون منعدمًا.

لو لم يرث أطيانًا وأسهمًا في بورصة القطن -بالرغم من أن ما بقي منها لم يعد كثيرًا بسبب إسرافه في الشراب والنساء، كان بيته في نقطة مركزية في الإسكندرية حيث يعيش الآن ورثه عن

أبيه الذي كان رجلًا قاسيًا- لما استطاع أن يدبر حياته.

بالرغم من تلك الذكرى التي أصابته بالكآبة واستعادت من أعماق ذاكرته صورة الرجل الذي كان يكرهه أكثر من أي شيء في الحياة، صورة والده. رجل قاسٍ ومتصلف لم يحبه أبدًا حتى إنه عندما حدد له نصيبه من الميراث من ثروته الضخمة التي فعل كل ما في وسعه ليبدد الجزء الأكبر منها وحسنًا فعل أنه بددها في «ضروريات غير مفهومة» كما قد يصفها العجوز لو كان على قيد الحياة.

نفاق الرجل ووقاحته ودوغمائيته وبخله الروحي وقسوته وموقفه تجاه الآخرين بالأخص تجاه والدته جعلوه يلجأ إلى التمرد والسلوك الثوري. التمرد ضد أي شيء يذكره به.

هذا كان يمنحه شعورًا بالانتقام منه وكان يعند ضد ذكراه فيقوم بكل فعل يجنح إلى فعل ساقط وفاضح، في حياة العربدة التي اختار أن يعيشها إلى أن همشوه كما فعلوا في البداية مع الشارع والحي الذي يسكنه.

هكذا خسر نفسه شيئًا فشيئًا.

على الرغم من هذا وبالرغم من كل الذنـوب التي اقترفها لم يكن يهدئه شيء، لا شيء يطفئ نار الـكراهية والنفور الذي كان ولا يزال يكنّه له طيلة هذه السـنوات حتى بعد موته. إلا أن التعب أصابه وتخلى عن حياته. تحول إلى شبه إنسان تراجيدي قبل أن

يتم الخمسين من عمره.

نهض من فراشه بتكاسل وتقريبًا مرهق وبلا مزاج. صار الوقت ظهرًا. في الفترة الأخيرة كان يستغرق وقتًا طويلًا حتى يفيق من نومه ويطرد عنه الخمول الذي ينتابه كل ليلة. صار استهلاك الكحول ينهك قواه، لم يعد جسده يتحمل لكنه كان يصر على الشرب حتى الثمالة بل وأحيانًا حتى الإغماء. وكما صار الأمر معتادًا بالنسبة له نظر إلى الناس من خلال المشربية، كان يحب أن ينظر من خلف مشربية البناية الفخمة في هذا الحي لأنه كان يرى الناس ولا يشعر أحد بوجوده. كان يعطيه الفرصة ليكون مراقبًا للحياة دون أن يشارك فيها على الإطلاق.

هذا غير أن منزله كان يقع في وسط حي شعبي مليء ببنايات طينية وضوضاء كثيفة من البسطاء وخليط عجيب من الألوان والسكان من طبقات اجتماعية مختلفة ومتنوعة، كان كل هذا بالنسبة له مسرحًا مثيرًا تشهد خشبته أحداث الواقع والحياة الحقيقية بعيدًا عن نفاق وتظاهر الطبقة العليا التي تثير اشمئزازه. لم يكن صدفة أنه جاء بالقرب من قسطنطين وكان يشكر الظروف التي باركت ظروف سكنته بالقرب منه.

***

كان الشارع هادئًا على غير المعتاد في هذا الوقت من اليوم، فهم أنه كانت هناك تحركات غريبة على جانب الشاعر من الناحية اليسرى عن التقاء الشارع بزقاق لا يؤدي إلى أي مكان في نهايته، خيمة صغيرة بقماش الجنازات نُصبت على ما يبدو من البكور بينما رجال بملابس شعبية يدخلون ويخرجون حاملين مقاعد خشبية.

سحب نظرته من المشهد ونظر إلى البناية المقابلة. كل النوافذ مغلقة والستائر أيضًا. لم يكن أحد واقفًا في الشرفات كي ينفض ملاءت وسجاجيد ولا حتى زوجه القهوجي التي ترش المياه في الشارع عند مدخل المقهى بينما الباعة الجائلون والنساء والرجال غابوا عن موقعهم المعتاد في المشهد.

صورة الشارع تغيرت تمامًا وكلما مر الوقت كانت الأجواء الجنائزية تصبغه وتسيطر عليه، عندما بدأت تلاوة القرآن تصدح عبر مكبرات الصوت بدأت تُسمع أصوات العديد من النساء كانت من عمق الشارع.

مات أحد، تأكد، فكرة الموت كانت تصيبه بالحزن الشديد. لم يشأ أن يفكر في الأمر لكن كل شيء حوله كان يصيح بعدم جدوى هذه الحياة ويسيطر عليها الموت تمامًا، كيف كان بإمكانه أن يصم أذنيه ويغلق عينيه أمام كل هذا؟

أول ما جاء على تفكيره كان بواب البناية المقابلة الطاعن في

السن وشعر بالقلق عليه. لماذا، ما الذي يمكن أن يأمله المرء سوى موت هادئ طاعنًا في السن؟ بعد ذلك فكر في صديقه وجاره لكنه طرد الفكرة سريعًا إذ تذكر أن الرجل قد غادر الإسكندرية بالفعل.

ترك عينيه تتجولان في كل شبر من الشارع وتتفحص كل الوجوه التي يراها بحرص والتي كان الحزن مطبوعًا عليها بوضوح. وها هو البواب العجوز قد ظهر في الشارع. رآه يسير ببطء متكئًا على عصاه يتجه هو الآخر مع طابور من البشر نحو الخيمة يتمتم بكلمات لم يسمعها بالطبع كان واضحًا أنها صلوات وأدعية.

«ما الذي يحدث يا مرزوق؟» سأله.

«مات شخص يا سيدي».

«فهمت هذا. لكن من؟».

وجَّه الرجل نظرته وانتباهه نحو صاحب عمله. على وجهه انطبع تعبير غريب. «لا أدري يا سيدي».

«لا تعرف؟ أنت تعرف كل شيء يا صديقي. لا يخفى عليك شيء أبدًا...».

«المرأة التي كانت تسكن أسفل الشارع في الحي. يقولون إنها كانت شابة» أجابه الرجل وهو يخفض عينيه على الأرض ويتلو

آية من القرآن عن فناء الحياة. «إنا لله وإنا إليه راجعون» قال وهو يختتم كلامه.

«من؟» سأل فيليب. «لا أعرف؟». «متى حدث هذا؟».

«لا أعلم تفاصيل يا سيدي البيه. أعرف فقط ما سمعت الناس يقولونه في الحي. يقولون إن فتاة غرقت في البحر».

«كيف غرقت؟» تمتم فيليب وراحت الأفكار في عقله تتلاطم كأمواج البحر. « كيف يمكن أن يحدث شيء كهذا في فصل كهذا؟».

«ذهبت للسباحة بينما كان البحر هائجًا، هكذا قالوا. انتفخت ملابسها وجرها البحر للأعماق. ثم بعد ذلك قاومت الأمواج العاتية قدر استطاعتها ثم غرقت. هذا ما يقولونه يا سيدي...». شرح الرجل كما لو لم يكن يستطيع احتمال نظرة فيليب الاستفهامية، طأطأ رأسه وهو يتمتم: «إنها إرادة ورحمة الله يا سيدي. لا يمكن لأحد أن يعارض حكمه».

لم يصر فيليب أكثر من هذا فلم يكن بمقدوره أن يغير تفكيره فهو بخلاف بعض الجيران الأقرباء لم تكن له أي علاقة بالآخرين. هكذا ترك نفسه لأفكاره بينما ينظر في ساعته بين الحين والآخر كي يقرر متى سيبدأ أول كأس اليوم.

أثينا ثيوذورو

العاشرة والنصف. مر الوقت سريعًا
من التاسعة حين أشعلت المصباح،
وجلست هنا، جلست دون أن أقرأ،
ودون أن أتكلم.

مشطت شعرها الرمادي الطويل ولملمته خلف رأسها على شكل عقدة كبيرة، وشبكته بمشبك شعر ثم وقفت أمام النافذة تنتظر زوجها يعود. لم تغمض عينًا طيلة الليل ولا حتى هو. موت الصغيرة حطمها، هز لحظاتها الخاصة، شعور بالحزن لم يتركها لحظة في هدوء.

في الحقيقة صوت صراخ الخادمة العجوز في الليلة الفائتة، كان أكثر صوت مخيف سمعته أثينا في شارع ليبسيوس حتى الآن. كان المستأجرون يدخلون العمارة خائفين مبهوتين يقفون أمام أبواب بيوتهم.

حينها تعجلت هي وخرجت لتنبههم أنهم أخبروا خادمتها بوفاة أصغر أحفادها. غرقت وهي تسبح في البحر، قالوا لها. ملابسها

انتفخت فسحبها التيار للأعماق، بينما لم يكن هناك أحد لينقذ الفتاة التعيسة. وجدوها على الشاطئ بعد أن لفظتها الأمواج.

جسد الفتاة المسكينة كان في المستشفى الجامعي بالإسكندرية. حل الفجر لتوه، قبل أن تشرق شمس يوم جديد كان كيرياكوس زوج أثينا يصطحب المرأة المسكينة إلى المستشفى. لم يتركها حتى عندما دخلت المرأة العجوز إلى المشرحة لتستلم جثة حفيدتها، حيث إن أمها لم تبذل جهدًا لتكون موجودة ولا سيما لتتولى نفقات جنازتها. تحملها هو دون أن يحضرها.

كانت الفتاة الشابة هي المفضلة لدى فوزية من كل أحفادها حتى إنها بالرغم من كبر سنها استمرت في الخدمة في بيت اليونانيين حتى تجهز لها مهرها ولتؤمن لها مستقبلًا أفضل بعيدًا عن زوجها المختل. حياة أفضل من تلك التي عاشتها أمها مع زوجها الثاني.

هو المذنب، قالت وعادت تقول إلى أثنيا وهي تلطم على وجهها بقسوة. الخطأ كان خطأه هو. ضغط على أمها حتى يزوج البنت قبل أن تتم عامها الرابع عشر حتى لا يتكفل بمصاريفها كما يقول المقرف. كانت الصبية جميلة، جميلة جدًّا وبريئة، وبراءتها هذه مع شبابها كانا يشكلان بالنسبة له ثروة يجب أن يستغلها يزوجها ويقبض فيها ثمنًا كبيرًا غير عابئ للتبعات ولا لحياتها. أي قيمة يمكن أن تعني حياة بنت صغيرة مثلها لو لم تترجم إلى أموال؟

صارت العجوز تصب عليه لعنات لا تحصى لطمعه وللطريقة التي عامل بها ابنتها حتى تقبل بتلك الزيجة غير الطبيعية من رجل ليس فقط في عمر جدها لو كان على قيد الحياة، لكنه أيضًا كان متزوجًا من ثلاث نساء أخريات ولديه الكثير من الأولاد.

لم يجب أن تتزوج هذا الرجل الذي لم يكن سوى مجرم، قالتها مرارًا وتكرارًا، هو الذي خنقها ثم ألقى بها الجوال في البحر. والآن ضاعت صغيرتي للأبد.

حاولت أثينا وزوجها أن يهدئا منها ويواسياها دون جدوى. ألم العجوز كان طاغيًا وعميقًا.

«اهدئي من فضلك» توسلت إليها أثينا وهي تضم على يدي المرأة المرتعشتين بقوة. لكن العجوز لم تكن تسمع، استمرت في النواح واللطم ومع كل صيحة ألم كانت تضرب على صدرها بقبضتها وتشد في شعرها الأبيض المجعد.

بكت أثينا مع العجوز. ليس فقط لأن حفيدتها في عمر حفيدتها هي، لكنها كان تشعر بألم فوزية. بالنسبة لها لم تكن فقط خادمة، شخصًا غريبًا يعمل لديها، كانت أحد أفراد البيت وأحد أفراد عائلتها، فهي تعمل في خدمتهم لما يزيد على عشرين عامًا. كانت تثق بها وكأنها أمها أو أختها الكبرى وكانت الشخص الوحيد الذي تفتح لها قلبها. كانت صندوق أسرارها حتى أكثر الأمور والأفكار الشخصية الدقيقة، وهي كانت بدورها تنصحها

وتخفف عنها وترشدها بحكمتها.

كانت أثينا تحكي لها دائمًا عن وطنها، جزيرة كاسوس حيث نشأت. جاءت مع عائلتها إلى مصر وهي صبية صغيرة حتى يعمل أبوها وأخواها الكبار في قناة السويس. مرات أخرى كانت تحكي لها أثينا عن أزمير موطن المرحومة أمها وزوجها كرياكوس وعن اللجوء الذي عاشه الكثير من أقاربهم عندما اتخدوا القرار الكبير بالتخلي عن وطنهم في عام 1914 وهاجروا إلى كل ركن في الكرة الأرضية ويودعون أصدقاءهم وبيوتهم القديمة. اختار بعضهم أن يأتي للإسكندرية بحثًا عن حياة جديدة وبداية جديدة.

ثم كانت تحدثها عن الطرد والترحيل الذي تعرض له كل من قرر أن يبقى في عام 1922. كان وضعهم وظروفهم أصعب بكثير من سابقيهم. عن الجرائم التي ارتكبت آنذاك عن المفقودين والقتلى الأبرياء الذين تركوا خلفهم بالأخص الأطفال الذين كانوا دائمًا نقطة ضعفها. بالنسبة للأمهات اللاتي لم يتخلين عن أطفالهن القتلى كن يحملنهم لأيام حتى يؤخذوا منهن بالقوة. عن العجائز اللاتي بقين رافضات أن يتركن موطنهن، عن الأغراض والحيوانات النافقة التي كانت تطفو على الماء في الميناء بعد الهروب الكبير. أحداث مؤثرة وتراجيدية كانت تسمع المرأة بذهول وعينين جاحظتين مقشعرة البدن من الخوف والدهشة وبين الوقت والآخر كانت تصيح بآيات ودعوة ترحمًا على أرواح المفقودين وإن كانت لا تعرفهم كانت تتألم لحالهم كما لو كانوا

أهلها. كانت تشعر برجفتهم وتتألم مع عذاباتهم.

بؤس اللاجئين كان يذكر الخادمة العجوز ببؤسها إذ إنها عانت وعاشت حالة الترحيل من قبل الجنود الإنجليز بالتعاون مع السلطة المحلية الذين طردوهم من قراهم وأراضيهم حيث كانوا يعملون مع أهلهم طيلة حياتهم. لا تتذكر السبب، كانت صغيرة جدًّا، حينها حمل أبواها أغراضهم القليلة ونزحوا إلى الإسكندرية. تخدم في بيوت يونانيين منذ كانت طفلة، كانت تقول لأثينا. «لحسن الحظ كانوا طيبين وكرماء يا سيدتي، يكنون مشاعر طيبة لنا نحن أهل البلد». لم تكن ترغب أن تكون لها أي علاقة مع الإنجليز، قالتها بوضوح لصاحب العمل فور أن وطأت قدماها بيتهم لأول مرة. إنهم بلا قلب ويستغلون أهل البلد بكل قسوة.

كانت المرأتان تقضيان ساعات طويلة من اليوم تتحدثان في أمور مختلفة. كانت الخادمة العجوز تشعر بالامتنان لهذه الثقة والصداقة التي أهدتها لها صاحبة البيت الذي تعمل فيه ولذلك كانت تلبي لها كل رغباتها. كان يكفي فقط أن تعبر أثينا عن شكوى أو رغبة ما إلا وتهم الخادمة في إزالتها أو تلبيتها بحب وطيب خاطر.

ثم إن فوزية فقط هي من كانت تعرف كل أسرار سيدتها. فقط هي كانت تعرف كم تألمت أثينا وكم كان حجم الذنب والألم الذي

تحملته كل هذه السنوات بداخلها عندما فقدت أصغر بناتها قبل أن تتم عامها الأول. ولدت الصغيرة قبل أوانها ولم يقو جسدها أبدًا. كانت مريضة على الدوام فكل شهر تقريبًا كانوا يهرولون بها إلى المستشفى. آخر مرة لم يسعفهم الوقت فماتت الصغيرة.

لم تنس أثينا أبدًا ذلك الألم من حينها ولا الغضب الذي كان مشتعلًا بداخلها لغياب المساندة من زوجها عندما ماتت الصغيرة بين يديها. كان الألم قاسيًا لا يُحتمل، لكن كان عليها أن تحتمل اتهاماته الظالمة لها بالإهمال الأمر الذي ترك ليها إحساسًا عميقًا بالذنب.

ليال طويلة سهرت المرأتان تتحاوران حول الموت والحياة، عن الحب والخيانة، عن هؤلاء الذين يلقون الرفض ومرارة الفقدان والخوف من الموت، عن كل هذه الأشياء التي تدفع البشر للتمسك بالحياة والتي تدفعهم في أحيان كثيرة للموت أو لتدمير الذات.

وما الذي لم تتشاركا فيه كل هذه السنوات. حتى إن فوزية كانت الوحيدة التي تعرف عن ذلك الطالب المصري الشاب الذي عشقته بجنون أكبر بنات أثينا، كاليوبي عندما كانت فتاة صغيرة قبل أن تتزوج الطبيب الشهير. كانت زيجة غار منها الكثيرون في ذلك الوقت في الإسكندرية بينما حضر حفل الزواج صفوة الجالية اليونانية وكل الشخصيات الأرستقراطية في المدينة.

لم يكن هناك شيء يشعرها بالسعادة والفخر أكثر من هذا،

فبالرغم من أن كاليوبي لم تكن تنتمي لتلك الطبقة المخملية في الجالية، طبقة أصحاب المصانع وتجار القطن إلا أنها كانت مثقفة وجادة ومجتهدة وكانت دائمًا على قدر الحدث والمسؤولية ومتطلبات هذا المجتمع الذي ينتمي إليه زوجها طيلة هذه السنوات.

كانت أثينا تشعر أنها مدينة بهذه السعادة لفوزية لأنه لولا وجودها بملاحظاتها الدقيقة القاسية وتعاملها الحازم من يدري أين ستكون ابنتها الآن، كان من الممكن أن يفقدوها للأبد.

صاغية المرأة لرغبة ربة البيت الذي تعمل به ولكن أيضًا مأمورة بتعاليم دينها وصحوة ضميرها، بحثت عن شاب ووجدته في بيته وفي حضور والديه العجوزين ودون مراوغات أو تعريفات مسبقة مهذبة أخبرته بحزم أمام العجوزين المندهشين اللذين حاولا أن يفهما ماذا يحدث أو حدث. هددته بكل وضوح أن يترك الصغيرة وشأنها وإن لم يختف من حياتها سيكون عليه أن يواجه والدها بل ويواجهها هي شخصيًّا. لم تكن لتهدأ حتى يعدها الشاب ويقسم لها أن يتركها وشأنها للأبد. وإلا لن تستطيع حتى هي أن تضمن له سلامته، إذ إنه في أمور كهذه أي عندما يتورط شابان في مقتبل العمر ومن خلفيات مختلفة كانت النتائج دائمًا غير سارة بل وخطيرة وتنتهي بفضائح أو فواجع.

كانت حاسمة ومقنعة حتى إن أهل الشاب البسطاء أصابهم

الخوف. توسلوا إليها لتهدأ ووعدوها وأقسموا لها بكل غال ومقدس أنهم سيعتنون بأمر إنهاء هذه القصة. كان ابنهم شابًّا شريفًا وطيبًا وسيتصرف وفقًا لمصلحة الجميع ولا سيما مصلحة البنت.

«من أجل مصلحة الجميع!» أنهت المرأة الممتلئة بصوتها الجهوري بينما كان جسمها كله يترجرج مع حلق أذنها الكبير المستدير الذي كانت ترتديه، كان هدية من زوجها المرحوم ولذا لم تكن تنزعه عن أذنيها أبدًا.

التزم الشاب بوعده. تدخل المرأة القوي، وأمام والديه البسيطين اللذين كانا يعملان في بيوت الأثرياء أيضًا حتى لا يتخلى ابنهم عن دراسته وهو ما أجبره أن يحسن التصرف ويبتعد عن حياة كاليوبي للأبد. اختفى دون أن يعرف عنه أحد شيئًا، دون أن يعطيها فكرة مسبقة. ورغم أن حزن الشابة كاليوبي آنذاك أزعج أثينا كثيرًا إلا أن ارتياحها كان لا يوصف.

كل هذا كانت تدين به لخادمتها.

منذ ذلك الحين لم تكن تدري كيف يمكن أن ترد لها هذا المعروف، بعد تدخلها الحاسم دون أن تورط أيًّا من ذويها ودون أن تتسبب في أي إشكال أو فضيحة.

فوزية فقط كانت تعرف عن نزوات سيد البيت زوج أثينا -وإن كانت لفترة وجيزة- إلا أنها كانت على وشك أن تودي بعلاقة الزوجين وبالطبع كان سيكون له أثر بالغ على صحة سيدتها النفسية. نعم، هي فقط كانت تعرف عن مغامراته مع تلك العاهرة التي سلبت عقله وأوقعت به في شباكها.

وقعت فوزية في معضلة، لكنها اعتبرت أنها مجبرة أن تنبهها وتنصحها كيف تتعامل مع الأمر.

بكت أثينا آنذاك بحرقة، بكت على كتف المرأة كطفلة صغيرة يائسة. ألم الخيانة كان عظيمًا حتى إن أثينا كانت تقارنه بألم فقدانها لطفلتها.

لم تقل شيئًا لزوجها، كما نصحتها فوزية. لم تذكر له أبدًا لا من قريب ولا من بعيد أنها كانت تعرف كل شيء عن قصة حبه الوضيعة وأن قلبها قد تحطم عندما علمت بهذا.

لم تقل له أبدًا لأن العجوز أكدت لها أنها لو طردته من المنزل ستخسره للأبد ولم تشأ أثينا أن تخاطر بذلك. كانت تعرف زوجها كما تعرف كف يدها، وكما قالت لها فوزية بثقة لا تحتمل أي شك. كما كانت تعلم أن قصص حب كهذه تنطفئ سريعًا مثلما تشتعل. نفس الشيء مرت به هي مع البائس زوجها ومع الأسف ليس مرة واحدة. لكنها تماسكت من أجل أولادها. «حتى أخذه الموت واسترحت للأبد» قالت لها، بينما كانت نظرتها تحمل تعبير رضا

فاجأ أثينا.

وبالفعل، غراميات كيرياكوس مع تلك الشابة سيئة السمعة لم تستغرق فترة طويلة، قلت شيئًا فشيئًا إلى أن انتهى الأمر كله تمامًا كما تنبأت المرأة الحكيمة. فمزايا الشابة الجميلة على الأقل في البداية كانت تتلخص في حنانها وعشقها وفي شبقها في الفراش في تلك الشقة القديمة التي تركها كيرياكوس دون أي يؤجرها كي تكون ملجأ لغرامياته. لكن عندما بدأت طلباتها تزداد وبإلحاح صارت تثقله كما تثقل الحمولة حصانًا عجوزًا، اعترف كيرياكوس أنه ليس لديه لا القوة ولا المقدرة أن يقدم لها ما تطلبه، لذلك غضبت ماريا وطردته من حياتها.

لم تنس أبدًا أثينا وضعه المثير للشفقة آنذاك. ظل لأيام وأسابيع في وضع يرثى له إلى أن استرد وعيه وكانت تبذل قصارى جهدها حتى لا تنطق بالسر الذي تحمله في صدرها لبناتها. لم يكن يتخيل أن أثينا تعرف بالفعل، وأن ألمها وخوفها كان يتوازى مع ما يشعره بشكل مختلف. لو كان قد شك في الأمر ولو قليلًا لا يعرف أحد كيف كان سيعقل ويزن الأمر أو أن يتخيل رد فعله.

تزوجت الشابة ورحلت بعيدًا، وحينها فقط استرد كيرياكوس وعيه. ابتعد عن الأفكار السلبية ودفع نفسه دفعًا كي يعود كما كان شيئًا فشيئًا مكرسًا حياته لزوجته وعائلته ومتخليًا عن الأفكار والشعور بالذنب الذي كان يعذب جسده وروحه.

لكن الأمر ترك وصماته على روح أثينا وعلاقتهما. فصارت هي شخص آخر. كان وجوده يجهدها كانت تنفر منه وتشعر بالاشمئزاز منه، أصابها القرف منه وصارت تكرهه. لم يعد لديها أي صبر معه وتتهرب منه دائمًا. عندما كان يبقى كيرياكوس في البيت في أيام الأحاد كانت تحرص أن تذهب إلى الكنيسة وحدها ثم تقوم بزيارات للأقارب ولصديقاتها وتعود متأخرة في المساء، متأخرة قدر ما تستطيع. وبعد ذلك بفترة وجيزة صارت تبتعد عن فراش الزوجية. لقد كبرت بما فيه الكفاية ولم يكن لديها أي رغبة في المداعبات أو ممارسة الحب، قالت له هذا بوضوح فاحترم هو قرارها وانصاع له متغاضيًا عن حقيقة أنهما لا يزالان شبابًا.

لأنه وعلى الرغم من أن كيراياكوس لم يتحدث قط عن علاقته بماريا الجميلة كان يؤمن بأنه سبب لها جرحًا عميقًا، كان يعرف في داخله أن نزوته هذه قد أثرت على علاقته بزوجته بشكل لا رجعة فيه.

كانت في البداية محنة موت طفلهما فانشرخ الزجاج، في هذه المرة كُسر الزجاج تمامًا.

ماريا

أيا روح، ليكون خوفك من المجد.

وتنتصرين على طموحاتك

وإن لم تستطعي، فبتأنٍّ وحرص

تتبعيها.

منذ كانت طفلة صغيرة كانت تتجول هنا في هذه الشوارع المزدحمة ليل نهار. كانت تحب التسكع في شوارع مدينتها الحبيبة، كانت تلتهم الشوارع بشعور غريب من الحرية والثقة كان يزداد قوة مع هبوب نسيم البحر السكندري وملوحته؛ شعور بالحرية يكاد يقترب من انتصار الحياة على أي شيء يمكن أن يؤثر عليها أو يقلل من شأنها، جمالها وجاذبيتها وبالأخص أهدافها وطموحاتها.

جسد ممشوق ومثير مثل تمثال أو لوحة بقيت من عصر آخر. رأسها متوج بشعر أحمر ناري يزيدها ثقة. عنقها منحوت مثل إلهة أسطورية، قديسة فائقة الجمال في معبد ممنوع. حتى ملابسها الرخيصة التي كانت ترتديها لم تخف جمالها الشفاف

ولا كمال منحياتها التي كانت تخطف أي مار وتخلب لب أي عاشق مستقبلي. بينما عيناها الزرقاوان تشهدان على مكرها واستيعابها الواضح بالرغم من صغر عمرها وأخلاق ذلك العصر. جمالها الفائق وشبابها كانا منحة من القدر لها، قوة حريرية ذات أصداء مثيرة.

أمها كانت هي الشخص الذي يشجعها على استغلال جمالها، أن تثمنه؛ إنه السلاح الفتاك الوحيد الذي يضمن الفوز في الحياة، هذا وحده سوف يساعدها أن تهرب من الفقر ويصعد بها سلم الحياة الأرستقراطية لتستمتع بحياة ثرية ومريحة. «هذا الجمال هو ما سيجعلك تهربين من مصيرنا الحقير البائس الذي أورثنا إياه أبوكِ. ستأمرين الحياة وتمليكنها!». كانت تقول لها باستمرار في الوقت الذي كان صدر ماريا ينتفخ بالفخر والثقة وبأنانية متورمة كانت تدب في نفسها الخوف.

كانت معتادة أن تقف أمام المرآة الكبيرة بجوار نافذة غرفتها وتتفاخر بجسدها العاري. في الحقيقة كانت ساحرة فاتنة وجسدها بالرغم من صغر عمرها كان يشبه تمثالًا رخاميًّا، جسد قادر أن يوقظ أكثر الرغبات جنونًا لدى الرجال بغض النظر عن أعمارهم. ربما جرت عجلات الزمان وحان أوان تحقيق أحلامها وطموحاتها وكلام أمها.

كان الكثير من الشباب يرتادون نفس الأماكن التي ترتادها أو

كانوا يتبعونها إلى المطعم الشعبي الذي كانت أمها تعمل به بعد أن أصاب أبوها المرض اللعين كي يسرقوا ولو نظرة من عينيها الجميلتين الغامضتين، عيني الصغيرة التي كانت عندما تتغيب عن المدرسة كانت ترافق أمها في العمل. وحتى لكي يسمعوا لحكايات أمها عن لحظات الفتاة الخاصة، أمها التي كانت لا تكف عن الثرثرة عن معبودتها الصغيرة.

اقتراب الرجال والشباب منها على اختلاف جنسياتهم وأعمارهم كان يزداد يومًا بعد يوم. نفس الشيء تصريحات الإعجاب من رجال كبار في العمر ومن كل الأعمار عن جمالها غير المعتاد. الجميع حولها كانوا يعترفون بهذا الجمال الصارخ بإيماءات ودهشة مفرطة عند عبورها. حتى عندما كانت لا تستمع لهمساتهم وتعليقاتهم كانت تشعر بهم وكان الأمر يزداد كلما كبرت.

إلا أنهم لم ينجحوا في إثنائها عن أهدافها سوى في البداية، لفترة وجيزة. حينها استطاع أحد الشباب أن يجذب اهتمامها وكادت أن تحول مسارها عن هدفها الأولي.

«حماس الشباب الأحمق سيكلفك مصيرك كله!» صرخت أمها في وجهها وهي تؤكد وتعدد مقوماتها. «لا تكوني حمقاء ومتهورة وتافهة، انظري كيف أصبح مصيري مع أبيكِ... أتريدين حياة كهذه؟».

وهكذا وقبل أن تزهر علاقتها أكثر من هذا وتكلفها الكثير، قطعتها بمحض إرادتها بقوة دفع علاقة أخرى مع رجل ناضج حاسم مثلما فعلت فيما بعد مع كيرياكوس.

منذ ذلك الحين تعلمت أن تتحكم في مشاعرها، أن تتحكم بها وتوجهها نحو الأفق الذي تختاره وتحدد متى مدتها وتاريخ انتهائها. تعلمت ألا تترك مشاعرها أبدًا تسيطر عليها لأن هذا سيجعلها متهورة ويقيد حريتها ويشتتها عن تحقيق أهدافها. وربما كان ثقة أو ربما شرطًا وضعته هي نفسها لنفسها من البداية. لم يكن هناك ما يستحق أن تحيد عن هدفها أو تغير مسار حياتها الذي حددته أمها لها.

لا شيء ولا أحد يجب أن يقف عائقًا في الطريق الذي اختارته. هذا ما وعدت به نفسها وأمها كذلك.

***

سريعًا ما تبدل الحماس والثقة والفخر الشبابي بإحساس لم يسبق لها الشعور به أو على الأقل لم تجربه كاملًا. كانت المشاعر التي بدأت تسيطر وتحدد حياتها وتقرر سلوكها مع الآخرين.

هكذا كانت علاقاتها تنتهي حين لا تأخذ منها ما تريد. وحينها كانت تنتقل إلى حضن آخر أكثر بذخًا يقدم لها ما هو أكثر.

الرجال بين يديها وبالأخص الرجال ممن هم في عمرها

حتى المتزوجون منهم، كانوا يتحولون إلى حيوانات أليفة على استعداد أن يلبوا كل رغباتها وينفذون لها كل ما تطلبه ولا سيما أن يدفعوا الديون التي تركها أبوها التعيس. لم يكن صعبًا عليها غوايتهم على العكس تمامًا كان سهلًا، بل أكثر من سهل. كان الأمر بالنسبة لها مثل التنفس، طبيعة ثانية وحسب.

لهذا السبب كانت نساء كثيرة من الحي يتجنبنها بوضوح وبشكل مكشوف موجهات لها إيماءات وتعليقات حادة ولم يسمحن بالطبع لبناتهن أو أولادهن أن يقتربوا من «قليلة الحياء» بنت الطباخة. لكن ماريا لم تكن تكترث على الإطلاق.

كان الرجال يعبدون الأرض التي تسير عليها ويستمتعون بإثارة غرائزهم في الخفاء.

طموحات المرأتين، الأم والابنة كان يعززها حقيقة أنهما كانتا تخفيانها عن الأب العاجز الذي كانت حالته الصحية تزداد سوءًا. لم يكن مؤكدًا أنه سيحتمل تطورات الوضع في حالته هذه، وكانت المرأتان تشكران حظهما بأن رجل العائلة قعيد في البيت لكي تستطيعا أن تتصرفا بحرية دون أي تدخلات أخلاقية منه.

في المطعم الذي تعمل به الأم، مر ضابط في الجيش الإنجليزي كان يخدم في الإسكندرية لفترة قبل أن يتم نقله إلى السويس. تصادف أن رأى ماريا في إحدى جولاتها في الشارع ومن حينها وهو يتبعها في كل مكان أينما ذهبت. أثاره شبابها وفتنتها

وبشكل أكبر أثارته الحرية التي تتحرك بها في الأماكن المعروفة والآمنة في الإسكندرية رغم عمرها الصغير. اقترب منها بسرعة دون أن يضيع وقتًا ناسيًا فرق العمر بينهما وبالأخص حقيقة أنه متزوج ولديه أولاد وأحفاد في بريطانيا، عرض على أمها مبلغًا كبيرًا من أجل أن يحصل على مباركتها وتأييدها.

المقابل وتقييم مباركتها وتأييدها كان يعني مبلغًا أكبر من أجل أن تتركه مع ابنتها دون أي شروط أو مضايقات ليتمع بالبنت، لكن كانت ضمانًا لأمانها أيضًا. هذا المبلغ الذي دفعه الرجل كان ضخمًا بالنسبة للأم والابنة وفقًا لمعاييرهما وهو الأمر الذي دعم قرارهما أن تتصرفا بشكل احترافي.

طريق طويل مفروش بالذهب تمدد أمام أقدامهما، الأمر لا يحتاج سوى أن تسير عليه ماريا الجميلة بثقة واعتداد.

شيئًا فشيئًا تعلمت كيف تقلب النيران بأدوات المرأة، أن تبقى على شعلة الإثارة والعشق واهتمام الرجال باستخدام جمالها وفتنتها تارة، ومرات أخرى باتباع غريزتها النسائية أو غريزة أمها. إلى الحد الذي تفوقت فيه مهارات ماريا في ألاعيب العشق على الباغيات المحترفات في الإسكندرية.

عندما اتسع نشاط المرأتين بدأ شأنهما ينتشر بين الجالية اليونانية وبالطبع من السلطات. لو لم يكن ذلك المحامي الشيطاني و"الخبيث" -كما كان يلقبه كل من يعرفه قبل أن

ينسحب إلى عزلته- لما كان يعرف سوى الرب متى كانتا ستخرجان من السجن.

حينها لم تكن ماريا قد بلغت سن الرشد، واضطرت للزواج بأمر من المحامي، من أول رجل متاح يقع تحت قدميها كي تهدأ الأمور ويتم التنازل عن الاتهامات.

تزوجت ماريا وبعد ذلك بسنوات قليلة هاجرت إلى أستراليا مع زوجها وابنها الذي كان يشكك الكثيرون في صحة نسبه، وإذا ما كان ثمرة زواجهما أو كان ثمرة علاقة أحد عشاقها. ومنذ ذلك الحين اختفى أثرها. بينما تركت أمها المدينة إلى وجهة مجهولة بعد أن هجرت زوجها القعيد، زوجها الذي صار نزيل إحدى مؤسسات الرعاية التابعة للجالية.

كيرياكوس ثيوذورو

...وهكذا ولت الرغبات
دون أن تشبع؛ ودون أن يقدر لها
النشوة ذات ليلة أو ذات صباح مضيء.

حركة غريبة انتشرت ذلك الصباح على امتداد الشارع التجاري الصاخب الضيق، في منطقة المنشية كما لو أن موجة كبيرة تحاصره. أصحاب المتاجر الكبار والصغار خرجوا من متاجرهم إلى الشارع كي يروا ماذا يحدث. دوي صيحات تتعالى من الميدان وباندهاش كبير رأوا جمعًا كبيرًا من الرجال والنساء من كل طبقات المجتمع السكندرية بعضهم كان يحمل لافتات في يده ويصيحون بهتافات ضد الفساد والانتهازية وضد بيع الكرامة.

«مظاهرات!» قال أحدهم بينما كانوا يشاهدون بحر البشر الهائج فراحوا يستعدون ليدخلوا إلى متاجرهم ويغلقوها فلم يكن أحد يعرف كيف سيكون رد فعل الشرطة والجيش الإنجليزي.

«ستسير المظاهرات في اتجاه محرم بك» صاح آخر متنفسًا

الصعداء ثم عاد إلى متجره.

بعد خفوت أصوات المتظاهرين والهتافات وابتعاد الجموع عن المنطقة، عادوا جميعًا إلى أماكنهم.

بعد قليل انطلقت الحوارات في الشارع حول أفعال الحكومة وتهور الملك والفساد والأضرار التي حلت بأصحاب المتاجر إثر مظاهرات قديمة.

كان كيرياكوس فقط يقف على مدخل متجر القماش الذي يمتلكه ويتابع الوضع دون أن يتورط في أي حورات. كان عقله منشغلًا بأمور أخرى، عائلية. بالرغم من هذا لم يكن غير مبالٍ تمامًا بالحراك في الشارع إذ كان يخرج بين الحين والآخر ليتابع الأمر.

فجأة سمع صدى صوت نسائي خلفه قطع حبل أفكاره.

«أخـ.. أخيرًا استطعت الوصول إلى هنا. كادت جموع المتظاهرين أن تجرفني بعيدًا» قالت بارتياح. «القدر يحميني يا عزيزي... صباح الخير يا سيد كيرياكو! أرجو ألا أكون قد أفزعتك».

رفع كيرياكوس عينيه متفاجئًا فور أن رأى وجه السيدة خاريكليا التي تمتلك نادي لعب الورق في شارع شريف، شارع تجار القطن كما كان يطلق عليه أبناء الجالية وحيث كان الضباط

الإنجليز يقضون أوقاتهم مع البشوات والبكوات وأيضًا مجموعة من اليونانيين ممن لديهم القدرة المادية لمجاراة متطلبات تلك الأجواء.

«صباح الخير، صباح الخير». أجابها كيرياكوس بعد أن زالت دهشته.

«ألست سعيدًا برؤيتي».

«حاشا لله، أنا سعيد لأنك بأمان. ازدادت أعداد المتظاهرين في الفترة الأخيرة، لكن الشعب محق في مطالبه».

«معهم الحق نعم، لكن لا يمكن أن تتخيل كم كنت مرعوبة. لحسن الحظ، فور أن تركت العربة على جانب الطريق جئت سيرًا على الأقدام. يوم رائع أليس كذلك؟».

لم يجب كيرياكوس، إلا أن هذا التغير المفاجئ في مزاجها أدهشه قليلًا.

السيدة خاريكليا لا تزال امرأة جميلة بالرغم من بلوغها الخمسين من عمرها أو ربما تخطتها. قوام ثري لافت وابتسامة تحمل وعودًا، وجسد ممشوق لفتاة في نصف عمرها.

لم تكن المرة الأولى التي تزور فيها متجر كيرياكوس للقماش. في الواقع زارته مرات عديدة من قبل. آخر مرة كانت قبل بضعة أشهر وعبرت عن إعجابها بتنويعة الأقمشة وجودتها في متجره

وكل مرة لا تنسى أن تثني على ذوقه الرفيع.

كان كيرياكوس على الجانب الآخر يستحسن المجاملة بينما لم يستطع أن يتجاهل ذوق المرأة ولا جمالها. كان يعرفها منذ زمن، الجميع كانوا يعرفونها من قبل أن تطأ قدماه متجره، سمع الكثير عن جمالها وسحرها. لم يستطع رغم هذا أن يخفي دهشته وبالطبع إعجابه بها عندما رآها لأول مرة.

وربما نبل الرجل ودماثته دفعا المرأة لزيارته مرات عديدة في متجره، بالرغم من كرمها وإسرافها إلا أن الأقمشة التي كانت تشتريها في الفترة الأخيرة كانت لم تكن تكفيها هي فقط بل كانت تكفي جيشًا من النساء.

«مرحبًا بك، وطبعًا صباح الخير». رد عليها التحية والارتباك يسيطر عليه وبدافع الغريزة اختلس نظرة نحو المحلات المجاورة.

«لعلك تتساءل لماذا مررت بعد فترة وجيزة من زيارتي الأخيرة. حسنًا يا سيد كيرياكوس، سمعت أن شحنة القماش الجديدة هي أفضل بكثير من السابقة ولدي فضول أن أتأكد بنفسي». قالت المرأة وهي تنظر للرجل بطريقة جعلت قلبه ينتفض بقوة وكفيه تتعرقان.

ابتسم متجنبًا النظر لعينيها ذات الكحل الكثيف. الحلة الأنيقة التي كانت ترتديها كانت ترسم منحنيات جسدها فأيقظت فيه

حواس قديمة وأشعلت بداخله شعلة كادت تطفئها الحياة اليومية والروتين القاتل ومشاكل الحياة الاعتيادية.

«ألن تسمح لي بالدخول بعد؟». قالت له بأدب وهي تومئ برأسها إلى داخل المتجر.

«بالطبع بالطبع... معذرة، لقد ارتبكت قليلًا». راح يعتذر كيرياكوس وقال متعجلًا: «تفضلي، تفضلي إلى الداخل من فضلك». أشار لها بالدخول قبله فتبعها وهو منوم مغناطسيًّا. «سأنادي على الموظف حالًا كي يساعدك فيما تطلبينه».

«لا، لا». أجابته المرأة وهي ترفع كفها ورسمت تعبيرًا غريبًا على وجهها. «أفضل أن ترى أنت طلباتي... بنفسك!».

الكلمات الأخيرة نطقتها خاريكليا بتأكيد وبمغزى جعل الحمرة تدب في وجه كيرياكوس وقلبه راح يدق بقوة في صدره».

«من فضلك هل أسبب أي إحراج يا سيد يرياكوس؟». سألته بصوت مليء بالغواية.

«عفوًا، أبدًا، حاشا لله». قال وهو يحاول بقوة أن يكبح مشاعره ولا يشي بإعجابه الشديد ولا سيما الرغبة والهياج الشديد الذي سببته المرأة بحضورها.

«على كل، أريدك أن تعرف كم أنا زبونة دائمة ولدي ولاء ولا أغير ذوقي بسهولة وإن احتاج الأمر أصبح عنيـدة...». قالت كأنها

تعد بشيء أو كأنها تقول إنها ستعيد الكرة وإنها لن تتوقف عن المجيء لمتجره حتى توقعه في شباكها.

ليس هناك أدنى شك في أن المرأة تغازله، وتتحدث له بطريقة تفضح تمامًا نواياها، لكن هو وبالرغم من عمره كان يبدو أمامها كأنه فتى قليل الخبرة، كمراهق يتعامل لأول مرة مع حالة هياج كهذه. وربما موقفه الحذر وجبنه أمام نفسه كان أكثر ما يفتن خاريكليا به من أول مرة قابلته فيها.

عندما غادرت المرأة المتجر، لم يستطع كيرياكوس أن يخرج وجهها المغوي ولا شفتيها الغضة شديدتي الحمرة من ذهنه طيلة اليوم. بهذا الحجم كانت رجفته وارتباكه فراح يلعن نفسه وضعفه بقية اليوم.

كان هادئًا وتقريبًا سعيدًا في حياته المتحفظة، في «موته المبكر» كما كان يقول لنفسه، ماذا تريد هذه المرأة وهذا الحضور الأنثوي أن يربك كيانه في عمره هذا؟ أن تحرك المياه الراكدة التي ركدت في السنوات الأخيرة من الملل وقلة الحيلة؟ لأنه كان من الواضح أن زيارات المرأة له في متجره لم تكن زيارات بريئة.

لكن، لماذا اختارته هو؟ فالمال الذي كان يكسبه وإن لم يكن قليلًا -فقد استطاع أن يربي أولاده في مستوى جيد وألا يحرم عائلته من أي شيء- لكنه ليس كافيًا ليلبي رغبات وطموحات امرأة كهذه، كما أنه هو لم يعد شابًّا. لكن أي مكسب يمكن أن

تجنيه امرأة كهذه مع رجل مثله، رجل في وضعه وسنه؟

اقترب عمره من الستين بالفعل، وكان يشعر بالتعب وانسحب من الحياة أو على الأقل من المغامرات. بالأخص بعد تجربته مع ماريا التي كادت أن تودي بسلامه النفسي وبزواجه وتهدم كيانه كلية لو لم تتركه هي. هذا بخلاف أنه لو استسلم لإغراء امرأة مثلها هناك خطر الفضيحة، وهو أمر لن تكتمه الجالية ولن تسامحه، ناهيك عن زوجته التي لم يشأ هو أن يجرحها ثانية لأي سبب.

كان قد أقسم إنه لن يستجيب مرة أخرى لأي إغراء كهذا. ومنذ ذلك مرت سنوات عديدة.

هو وأثينا يعيشان معًا لسنوات طويلة، عاشا عقودًا معًا رزقا بثلاثة أطفال، مرت بهم أفراح وأحزان، بالأخص مع ولادة الطفل المسكين الذي مات بين أيديهم قبل أن يكمل عامه الأول في الحياة. ألم فراقه كان كاسحًا، كان أشبه بخنجر يقطع قلبهما. ألم نفسي وبدني رهيب، لم يجدا أي شيء ولا أحدًا يواسيهما، ولا حتى ابنتاهما الكبريان اللتان كانتا تمران بسن المراهقة وهو الأمر الذي سبب فيما بعد لهم بعض الشعور بالذنب تجاههما. بينما بين الحين والآخر كان ينفجر في أثينا ملقيًا عليها اللوم والمسؤولية دون أي مراعاة لمشاعرها ولا لصمت الشهداء الذي كان يكتنفها.

في تلك الفترة تعرف على ماريا الجميلة. فتاة صغيرة كانت

تشتته بعيدًا عن حزنه وألمه وتفتح له أبواب التفاؤل والفرح والنشوة على مصراعيها. فتحت له في البداية بوابات الحياة! كانت ماريا كالأمواج العاتية تتخطى قواه. في البداية كان يستمتع بحنانها وحبها. لكن بعد ذلك عندما لم يكن دفء يديه ولا أحضانه كافيًا، بدأت الصبية في التململ، كانت تريد ما هو أكثر. في اليوم الذي كشفت له فيه أن حبها له قد خفت، سُحقت روح كيرياكوس وشُل بدنه كما لو أن مرضًا عضالًا قد أصابه. وبالرغم من أنه كان يعرف أن هذه هي النهاية المحتومة لعلاقتهما، آجلًا أو عاجلًا سوف تأتي النهاية، إلا أن برودة الفتاة المفاجئة نحوه حطمته وتسللت إلى أعماقه كمرض خبيث تمدد في أحشائه وكاد يودي به. وعندما سيطر عليه كلية، كانت أثينا هناك لتداويه دون أن تسأله عن شيء أبدًا.

ثم إنه في هذا العمر هل كان بإمكانه أن يعود إلى عهد شبابه السابق وإلى قوة احتماله وفتوته؟ لا، بالطبع لا، لقد هرم، سيكون من غير اللائق في عمره هذا أن يفعل شيئًا كهذا، لا يجب سوى أن يفكر في أحفاده.

لكن أيضًا، ألا يستحق مغامرة أخيرة في الحياة؟ نزوة أخيرة يتذكرها في شيخوخته؟

كانت تمر عليه أيام يشتاق فيها إلى جسد ماريا العذب وإلى بشرته الملساء وضحكاتها الطفولية وإلى شفتيها، بالأخص

شفتيها، عينيها اللتين كانتا تلمعان في الغرفة خافتة الضوء بينما كانا يمارسان الحب، وبعد ذلك، عندما كانت تتكور في أحضانه. حينها كان يحاول أن يطرد صورتها وتلك الأفكار من ذهنه بالأخص في البداية بعد فراقهما، كانت صورتها وعيناها وشفتاها وذراعاها وكل جسدها تلح في مخيلته.

لم يقبل هكذا امرأة في حياته. لم تمنح له امرأة نفسها كتلك الصبية. ذلك الشعور الإلهي كان يلح عليه باستمرار.

كم من مرة اشتاق للقاء آخر معها قبل أن يغلق عينيه للأبد؟ ولو لم تتزوج الصغيرة، من يدري إذا كان سيقاوم الإغراء ليطلبها في حياته مجددًا.

كانت هناك مرات بينما كان يمارس الحب مع زوجته، قبل أن تقرر أن تبتعد عنه وأن تعزف عن واجبات فراش الزوجية، كان يفكر فيها وهو الأمر الذي كان يزيد رغبته الجنسية التي بدأت في الخفوت والركود حتى نسيها تمامًا، أو أجبر على نسيانها عندما قررت أثينا التخلي تمامًا عن بهجات الحياة.

كان قراراها هي، ليس قراره.

لكن لا، لا يجب أن يكون أنانيًّا، كما أنه لم يعد في مركز يسمح له يهب أو يستلهم العشق. ثم إنه كان قد أقسم ألا يسمح للنزوات

أن تدق بابه ثانية، أن يبقى رجل أسرة شريفًا وعفيفًا وجادًّا، كان مجبرًا أن يكون هكذا.

وهكذا لا الفكرة ولا صورة خاريكليا المبهرة وما يمكن أن يعيشه معها ولو لمرة واحدة تركوه في هدوء. ملامح وجهه القوية وصوتها اللعوب وصوتها الساحر وجسدها الشهي كانوا يتبعونه بإصرار من اللحظة التي يتخطى فيها عتبة متجره في عالمه الهادئ ولا يتركونه أبدًا.

كانت الأفكار تلح عليه كما كانت ماريا تلح عليه لسنوات عديدة بعد الفراق. في واقع الأمر لم ينسَ الصغيرة أبدًا. وبالرغم من أن علاقتهما نشأت وانتهت بسرعة، إلا أنها بقيت دائمًا محفورة في ذاكرته مثل ذكرى حلوة ومُرة وبرغم الألم والانهيار الروحي والنفسي الذي سببته، كان يتذكرها دائمًا، كانت تؤنسه في لحظات وحدته ولو قليلًا كما كانت تؤنس خوفه من الشيخوخة ومن الوحدة والموت.

لكن على الصعيد الآخر، كم ثمن نزوة صغيرة لمرة أخرى في هذ الحياة؟

ربما في الحقيقة لن يلحظ أحد شيئًا إذا كان حذرًا مثلما كان يزعم صديقه ماركوس في ذلك اليوم في المقهى، عندما بعد تردد كبير أسر له بأفكاره القذرة عن تلك المرأة بعد أن زارته في المرة الأولى. بل وربما يخرجه هذا الأمر من مزاجه السيئ والسأم الذي

زحف في حياته في السنوات الأخيرة وكاد يلتف حول عنقه ولا يدعه يتنفس.

«لا، لا» كاد يصيح بينما كان يفكر في الأمر في منتصف الطريق فجذب انتباه ونظرات المارة. بعد ذلك مباشرة وعى لما اقترفه وابتسم من الخجل ثم طأطأ رأسه فتسمرت نظرته على الشارع قليلًا. بعد ذلك رفع رأسه نحو السماء وراح يتنفس نسيم البحر، اخترقته ملوحته وداعب النسيم أنفه. كانت هالة البحر طاغية ووصلت إلى أعماق المدينة، نواته دائمًا هي الإسكندرية، وصل نسيمه إلى الأزقة الصغيرة فمسّد بحرارة على المحلات الفقيرة وروائح البهارات في الأسواق الشعبية المفتوحة.

تنهد بعمق وانطلق مجددًا نحو الشارع على أمل أن يشغله ضجيجه وزحامه الطاغي عن هذا السيل من الأفكار والمعضلات، تلك الأفكار الخطيرة التي لم تتركه إلا متأخرًا في المساء عندما زاره زوج ابنته ثوماس، كان منهارًا وهو يخبره أن إيليني، ابنته الصغرى، قد توفيت لتوها.

بعد محاولات عديدة فاشلة كادت تكلفه زواجه، والأكثر من هذا كانت صحة البنت النفسية، حلت تعاسة أخرى لتأخذ مكانها في قائمة المصائب. حينها فقط انصاع عقل كيرياكوس ورضخ مجددًا للعائلة وشفي، حتى لو كان شفاءً مؤقتًا من الإغراء الملح. على الأقل، حتى المرة القادمة التي ستزوره فيها. في تلك اللحظة ضبط نفسه وهو يتمنى ذلك بكل حواسه.

«لا تتحدثوا عن الذنب ولا المسؤولية. فعندما يمر دستور النشوة ويستعرض موسيقاه؛ عندما ترتعش الأحاسيس وتنتفض، فأحمق من سيتحفظ، ومن لن يحتضن القضية الصائبة، سائرًا نحو إخضاع الأهواء والملذات».

كان يومًا مشمسًا مما خلق لديه الشوق كي يتمشى على الشاطئ قليلًا حتى تهدأ نفسه قليلًا من الهموم التي تثقلها.

مر وقت طويل منذ أن تمشى آخر مرة على الكورنيش، من الوقت التي تعافت فيه إيليني، متفائلة وبصحة جيدة. كان يوم أحد فقاموا بنزهة على الكورنيش بعد صلوات الأحد في كنيسية سان سابا/ أغيوس سافاس، حيث تجمعت الجالية كلها ثم انتشروا في المقاهي ومحلات الحلويات المنتشرة في الميدان.

غادر هو وإيليني أولًا ليتمشيا ثم عادا لبيت أثينا للغداء، كعادة لم تتغير أبدًا، تقريبًا.

بالتأكيد في حينها لم يقعا في الحب بعد.

قفز في الترام وبعد قليل وصل للشاطبي. قطع طريق

الكورنيش بقصوره الجميلة والعمارات الجديدة التي بدأت في الانتشار على مضض في الفترة الأخيرة، ثم جلس قليلًا على مقعد حجري وأعطى ظهره للشارع.

كان منظر البحر ساحرًا، وشافيًا، فيما كانت الأمواج تنكسر تقريبًا عند قدميه، إلا أنه فضل بعد قليل أن يقوم ليتمشى بطول الكوريش.

اقتربت الساعة من الثانية عشرة ظهرًا، وحرارة الشمس الصيفية كانت لطيفة من أثر نسيم البحر العليل والماء المالح راح يرطب وجهه بين الحين والآخر، فيما كانت الأمواج تنكسر على صخور الشاطئ. كانت تمشيته مريحة بالفعل وهدأته، لكنها لم تستطع أن تثنيه عن الأفكار الضبابية. منذ أن أجهضت زوجته للمرة الثانية، تغيرت حياته بشكل جذري وصارت عذابًا خالصًا. كادت إيليني أن تموت من حزنها، حتى إنها لم تعد تريده أن يقترب منها وبالطبع لا حديث عن الأحضان أو ممارسة الحب كما في الماضي.

كل محاولات ثوماس لإدخال البهجة عليها ذهبت سوى، حاول أن يزرع بداخلها الأمل، أن يذكرها بحبهما القديم، لا شيء. كان إصرارها على السقوط في الحزن راسخًا وبإيقاع منتظم إلى أن صار كلامهما نادرًا. كانت تغلق عليها غرفتها وغالبًا ما كانت ترفض الطعام. حتى إنها في مرة بعد شجار كبير بدأ دون أي

سبب حقيقي، طردته من غرفة النوم ومن فراش الزوجية ومن وقتها وثوماس ينام على الكنبة الكبيرة في الصالون.

فجأة، توقفت بجواره عربة حنطور فقطعت عليه طريقه. تفاجأ الرجل ورفع عينه ورأى فتاة تنظر إليه بابتسامة مشرقة.

شعرها الذهبي المتموج الذي أربكه الهواء كان يشبه تاجًا نورانيًّا يحيط بوجهها الجميل بشكل مدهش ويؤكد على حلاوة ملامحها الرقيقة.

«صباح الخير» ألقت الشابة عليه التحية بأدب «ها نحن نلتقي مرة أخرى».

صُدم ثوماس باللقاء المفاجئ بينما غطته موجة من الإثارة فجأة فور أن تعرف عليها فضاعت منه الكلمات.

كان قد التقى بها بالصدفة في مقهى حلواني بوردو عندما ذهب وحده ليحتسي القهوة بعد العمل. كانت هي جالسة بالفعل هناك على الطاولة المقابلة له تأكل الأيس كريم بكل أنوثة فخطفت أنظاره. عندما لاحظت نظرات الشاب القلقة على وجهها ثم شيئًا فشيئًا يتفحصها بالكامل بإعجاب رزين قامت من على طاولتها وعرفت نفسها.

طويلة ونحيلة الجسد، جمالها هادئ رقيق مغرٍ، ملامحها نبيلة وابتسامتها مشرقة. رأسها متوج بشعر كستنائي أشقر متمرد كان

يسقط متموجًا على كتفيها المستديرتين اللتين تعكسان بريق شمس الظهيرة. عيناها الداكنتان كانتا معاكستين تمامًا لبياض بشرتها بينما تعكسان غموض الفكر الأنثوي عندما تنظران إلى نقطة غير محددة قبل أن تستقرا عليه بثقة وتأكد.

كان الرجل ينظر إليها مثل الظمآن أمام ينبوع في صحراء شاسعة. أو كما لو كان يقف في حقل ألغام محاط بالسلك الشائك. ترك موقعه دون وعي ثم عاد واختبأ مجددًا في فنجان قهوته، إلى أن حدثت المفاجأة، عندما رفع رأسه ونظرته فشعر بحضورها بجواره.

«أنت يوناني؟» سألته بدلال.

«نعم» أجابها مدهوشًا وهو يضع فنجانه على الطاولة.

«هل يمكن أن أشغلك لدقيقة؟».

«تفضلي» عاد إليه النطق مجددًا، هذه المرة بوضوح أكثر.

«في البداية يجب أن أعترف بانبهاري. إن مدينتكم رائعة وشيقة. إلا أنها يونانية جدًّا... جدًّا».

«لم يسبق لكِ المجئ إلى هنا أفترض؟».

«لا، إنها المرة الأولى وكي أكون صريحة لم أكن أنتظر أن ألتقي بهذا الكم من اليونانيين. إنها يونان صغرى على شاطئ إفريقيا،

لم أكن لأصدق هذا الأمر أبدًا لو لم أر بعيني».

كانت ممثلة من اليونان وتتجول في الشرق الأوسط في مدن متعددة مع فرقة مسرحية معروفة. ستبقى في مصر لشهر كامل. قدموا بالفعل عروضًا في القاهرة والآن جاء الدور على الإسكندرية.

طلبت منه أن يرشح لها مطعمًا وقد رشح لها مطعم إيليت أو أثينوس على الكورنيش، هو قريب من هنا.

«العائلة المالكة تتراود على هذه المطاعم عندما يأتون إلى الإسكندرية في الصيف» وقال بسذاجة كي يؤكد على ترشيحاته، وأيضًا كي يترك انطباعًا جيدًا، أو ربما كي يحاول بلا مهارة أن يخفي ارتباكه الواضح الذي كان يزداد بالأخص عندما بقيت ولم تبتعد عن طاولته.

«آه، كم هذا رائع!» أجابت بمسرحية تليق بموهبتها وصوتها الجميل، صوت له صدى على الآذان كتغريد طير من الجنة.

«بالتأكيد سأرشحه لزملائي... أنا متأكدة أنهم سيتحمسون للفكرة».

لكي ترد له الجميل دعته لمشاهدة العرض وأخرجت دعوة من حقيبتها وقالت له: «سأسعد كثيرًا لو أتيت لمشاهدة العرض».

تردد ثوماس لكن للحظة فقط، لكنه أجاب وهو يأخذ الدعوة من

يدها متجنبًا النظر إليها.

«شكرًا جزيلًا، سأحاول الحضور، أعني، سنحاول... لو استطاعت زوجتي... أتدرين، إن صحتها ليست على ما يرام ونادرًا ما نخرج من البيت... على كلٍّ، أشكرك، أشكرك جدًّا على المجاملة اللطيفة».

نظرت إليه المرأة نظرة متفحصة كما لو كانت تحاول أن تقرأ بعض الأسرار الغامضة، لكنها لم تقل شيئًا. ابتسمت له فقط ابتسامة مشجعة، عندما شعرت بنظرات رواد المقهى تراقبهما بإلحاح، عادت إلى مكانها.

لكن ثوماس لم يستطع أن يقنع إيليني، مهما تكرر طلبه.

«خسارة أنك لم تأتِ إلى العرض» قالت له بجدية، لكن بقدر وفير من الإحباط، وهي ترى اندهاش الشاب المتسمر أمامها، استمرت في حديثها لكن بنبرة حنون في صوتها. «لكن ربما لم تستطع إقناعها».

«كيف؟ من؟ ماذا؟».

«أعني زوجتك» نظرت إليه بتعبير لم يفهمه الرجل «ربما لم تستطع أن تقنعها بالحضور».

«نعم، نعم، لم تكن على ما يرام وأنا... أنا رأيت أنه من غير الصحيح أن أتركها وحدها في وضعها. على كلٍّ، أنا مدين لكِ

بشكر على الدعوة» استطاع أن يجيب الرجل الشاب أخيرًا نازعًا من عليه رداء الخجل ومكتسبًا فجأة هدوءًا غريبًا وجديدًا بالنسبة له.

«فهمت. ربما في مرة أخرى؟ عندما ستشفى وتكون على ما يرام. أتمنى في أقرب فرصة».

خفض ثوماس نظرته دون أن يعلق على ما قالته، فَضّلَ أن يلجأ للصمت، بدلًا من أن يعطي استمرارية للحوار. كان الصمت إجابة دلالية في حالات كتلك، وإلا أي امتداد لهذا الحوار كان سيحتوي ضمنيًّا على وجود أمل كاذب لم يشأ هو أن يغذيه لدى الفتاة.

كان يعرف نفسه جيدًا، تأنيب الضمير كان سيعذبه حتى يفتك به. وبالرغم من أن رجولته مجروحة إلا أن اهتمام الفتاة ضمد شيئًا من الجروح وأرضى غروره بعض الشيء وفي أعماقه كان يتوق أن يخطف هذه الفرصة أكثر من أي شيء آخر.

لكن الفتاة لم تستسلم عندما رأت ثوماس على وشك الابتعاد وسألته: «حقيقة، إلى أين أنت ذاهب؟ لم لا تصعد للسيارة لأصطحبك أينما تريد. لقد استأجرت السيارة لآخر اليوم. ستكون فكرة رائعة كي تريني المدينة. ونتحدث قليلًا ونتعرف على بعضنا أكثر. ما رأيك؟».

تفاجأ ثوماس. لم يكن ينتظر هذه الجرأة.

«حسنًا؟». أصرت الفتاة.

«أشكرك، لكن أعتذر منك، يجب أن أعود للبيت فورًا» رفض بأدب بينما صوت ضعيف بداخله كان يدفعه لقبول هذا العرض الجريء للممثلة الجميلة.

«ثم إنني، أفضل المشي».

«كما تريد» أجابته الفتاة مُحبطة «على أي حال، الدعوة قائمة ومفتوحة ولن أفقد الأمل. أنا أصر عليك أن تأتي إلى العرض». فجأة وكأنها تذكرت شيئًا أضافت بحماس طفولي: «ستكون معنا ابنة الإسكندرية الممثلة الرائعة فيكتوريا بابايوانو. ستكون فرصة عظيمة أن تشاهدها في دور عظيم».

كلماتها الأخيرة كانت بمثابة المحاولة الأخيرة كي تقدم له مغريات أكثر.

كان متأكدًا أن اسم المرأة الذي ذكرته كان يذكره بشيء، كما لو كان قد سمعه من قبل في الماضي لكنه لم يعره انتباهًا. لم يكن من عشاق الفن، أي نوع من الفنون، وكان نادرًا ما يقرأ، لم يكن يتعاطى سوى مع الجرائد اليونانية التي كان يشتريها فقط من أجل أن يعرف أخبار الجالية.

فلو أنه وجد الشجاعة ليتخذ القرار بالذهاب للمسرح، سيكون قد فعل هذا فقط من أجلها، وفقط لأن هذه الجميلة قد أثرت

فيه بلطفها وإصرارها واهتمامها به. حماسها وجمالها البسيط منحاه أجنحة ذهبية.

لكن، لماذا كل هذا الإصرار؟

«سأحاول، أعدك أنني سأحاول...». قال متلعثمًا من جديد، دون أن ينظر إليها هذه المرة.

ابتسمت الفتاة ابتسامة تحمل قدرًا من الشك، لكن تعبيرها أوشى بوضوح عن إصرارها لإقناعه.

«سيعجبك كثيرًا، أنا متأكدة. فكر في الموضوع جيدًا. أنا على كل حال سوف أنتظرك».

بهذه الكلمات رفعت الفتاة رأسها وأشارت إلى سائق العربة ليستمر دون أن تحييه في هذه المرة. كان واضحًا أنها بذلت كل محاولة تليق بشابة مثلها وبكلامها، كما كان جليًّا أيضًا أنها غازلته وأن الإحباط أصابها عندما رفض النزهة.

فور أن ابتعدت العربة يصحبها الرنين الغامض للجرس الصغير وإيقاع بخترة الحصان، أخذ ثوماس نفسًا طويلًا طويلًا. خلال هذا الحوار المقتضب، كادت تنقطع أنفاسه، كأنه حبس أنفاسه مؤقتًا. اهتمام الفتاة كان مكشوفًا، وهو الأمر الذي شوشه كثيرًا ووتره. وهو كان في أمس الحاجة لحوار ودود ورقة امرأة، وهي أشياء سُلبت منه بلا وجه حق مبكرًا جدًّا. فور أن هدأ قليلًا

وعادت الدماء تجري في عروقة بشكل طبيعي، حاول في البداية أن يتذكر وجهته الأولية. بينما عائلة من ثلاثة أفراد مرت عليه، راح عقله يسرح في إيليني وشوقها لتحصل على طفل. كيف يمكنه أن يجرحها؟ لا، لا، ليس لديه الحق لكي يفعل هذا. سيكون هذا فعلًا مشينًا.

بالتأكيد، قد تغيرت إيليني كثيرًا في السنتين الأخيرتين، وبالأخص بعض إجهاضها. صارت بعيدة وباردة وفقدت مزاجها ورغبتها السابقة في الحياة معًا بالإضافة إلى عزفها عن ممارسة الحب مما أدى به إلى موت الرغبة بداخله وهو لم يبلغ الثلاثين من عمره بعد. ثم إنها كانت دائمًا حزية وشاردة ومتعكرة المزاج ودائمًا ما تفجر غضبها فيه محملة إياه المسؤولية أن حياتهما لا تسير على ما يرام. وأحيانًا أخرى كانت تسقط في حزن عميق أو تلجأ إلى صمت مديد مُعذب متجاهلة تمامًا وجوده. وفي أوقات أخرى كانت تزحف كالظل من غرفة لأخرى دون أن تلقي عليه نظرة ولا حتى توجه له الحديث. مهما حاول أن يشتت ذهنها عن موضوع الإنجاب ويقترح عليها أن يقوما بشيء ممتع، سفر للعاصمة أو رحلات إلى شواطئ بعيدة، كانت لا تهتم مطلقًا، دائمًا ترد عليه بنظرات شاردة ثم تعود للسفر في عوالمها المجهولة. ما هو هذا الشيء الذي سيوقفها عن السقوط في هذه الهوة المجهولة؟

طفل. طفل يأبى الحضور. أو، لو جاء، فيرفض البقاء بإصرار.

لا يقوى هو على التفكير في الانفصال. الطلاق سيكون قاسيًا وسيترك خلفه جروحًا لن تندمل.

***

لا يتذكر أبدًا متى أو ما الذي دفعه لينفض كل التردد من عليه، ويذهب إلى مسرح زيزينيا حيث كانت تعرض مسرحية الممثلة الجميلة..

مر تقريبًا أسبوعان منذ ذلك اللقاء.

اسبوعان من الكفاح ضد الصدام الداخلي، إذ إن الفتاة الشابة لم تكن امرأة عابرة. جمالها ورقتها كانا إغراء كبيرًا بالنسبة لروح ضعيفة كروحه، لشبابه النابض وجموحه الذي لم يجد مردودًا وحنانًا من زوجته. كان يعلم ويخشى أيضًا أن قبوله لدعوة الممثلة الشابة، وأن يذهب وحده لمشاهدة العرض، أنه لن يرفض أي شيء بعد ذلك.

نعم، لم يكن القرار سهلًا ولم يتخذه على عجل. لم يغلق ثوماس عينًا في الليلة الماضية وأثناء اليوم كان عقله شاردًا طيلة الوقت في الممثلة الجميلة الشابة ولم يستطع العمل. ولا حتى في المساء عندما عاد إلى البيت من مكتبه، لم يشرب الشاب كما يعتاد. دخل للحمام وتحمم وتعطر وصرح لإيليني أنه سيذهب مع صديقه إلى

السينما.

«كدت أن أنسى» تحجج، بأن إيليني التفت نحوه بنظرة شك. لكنها لم تقل شيئًا. لم تعبأ على الإطلاق بما سوف يفعل أو إلى أين سيذهب. لقد قررت منذ فترة أنها سوف تطلب منه الطلاق وكانت تعتزم أن تفعل هذا قريبًا.

هذا غير أنه فيما كان ثوماس يغادر طلبت منه بطريقة تشبه الأمر ألا يحدث أي ضوضاء وألا يضايقها عندما يعود في الليل.

وصل لاهثًا إلى المسرح بعد أن نزل من الترام الذي كان على مقربة من محطة الترام. وبينما كان لا يزال يلهث ووجهه ضربته حمرة الشوق من الهرولة، اندفع إلى شباك التذاكر بأنفاس تتصارع وطلب أن يبدل الدعوة بتذكرة للعرض المسرحي.

لكن السيدة في شباك التذاكر نظرت إليه باندهاش بينما كانت تعقد حاجبيها السوداوين الكثيفين وأخبرته تقريبًا بشيء من الضجر والملل أن عروض الفرقة المسرحية في الإسكندرية كانت قد اكتملت في الليلة الماضية وأن الفرقة سوف تسافر الليلة بالسفينة إلى بيروت.

***

لم يقو على العودة للمنزل في تلك الليلة، شعر أنه منهار نفسيًّا ويائس جدًّا من حياته. لم يزل في ريعان شبابه لكن الهموم

والمشاكل دمرته نفسيًّا أو على وشك أن تفعل. كان في أمس الحاجة لهدنة صغيرة من كل هذا البؤس والظلام، إلى حضن أو حتى لمسة دافئة مع إنسان كان من الواضح أنها تريده. لكن جبنه كان السبب وأيضًا طبيعته الوسطية المتحفظة وشعوره بالمسؤولية الذي يرثه ذويه من سن مبكرة.

راح يتمشى بلا هدف لوقت طويل حتى وجد نفسه عند ميدان محمد علي. كان الحركة قد تضاءلت بشكل كبير حيث إن الساعة قد اقتربت من العاشرة مساءً، وعلى الرغم من أن هناك الكثير من المتسكعين يستمتعون بنسيم البحر الربيعي الذي راح ينقل وينثر كل روائح البحر المالح وأيضًا روائح الذرة المشوية في كل الأرجاء.

جلس على أحد المقاعد لوقت طويل حتى تاه في أفكاره لكن في هذه المرة كانت الممثلة الجميلة هي من تسيطر على أفكاره. تخيل نفسه وهو يحيط جسدها الشهي الرقيق بذراعيه وأن يضمها بقوة بين كفيه. شعر بها تقريبًا ترتعش بين ذراعيه بينما أثير بشدة من فكرة رائحة عطرها المسكرة التي تتطاير من شعرها، حين قابلها بالصدفة في تلك الكافيتيريا. كان العطر لا يزال يداعب أنفه مع صورتها والشعور الذي تخلفه ابتسامتها في روحه. فجأة شعر بالخجل من هذه الأفكار المخجلة المحرجة.

هز رأسه وهم بالمغادرة. الحركة في الميدان تضاءلت بشكل ملحوظ وحل شيء من الهدوء حوله.

نعم، فرغ الميدان فجأة من حياته وضجيجه المعتاد، فقط بعض القمامة التي داستها الأقدام هنا وهناك كان يحملها الهواء بين الحين والآخر من هنا لهناك موشية بكثافة الحركة التي سبقت في طيلة اليوم. نهض وراح يمشي بخمول وقطع الميدان نحو وسط المدينة. بعد قليل كان قد وصل إلى بيت أبويه. توقف لبرهة ورفع رأسه إلى أن وصلت نظرته إلى الطابق الرابع. رأى ضوء الصالة الرئيسة للبيت وفكر في الصعود إلى ذويه قليلًا. اشتهى كثيرًا رؤيتهم والحديث معهم، ربما يساعده هذا على تناسي سوء مزاجه واليأس العميق الذي يشعر به. لكن في اللحظة الأخيرة شعر بالندم. كان الوقت متأخرًا ولم يشأ أن يشعرهم بالقلق. وهكذا فضل أن يتسكع لبعض الوقت في الشوارع قبل أن يعود إلى بيته الصامت. تمنى لو كانت إيليني نائمة حتى لا يثير غضبها.

لم تكن دائمًا زوجته على هذه الحالة. كانت إيليني وديعة ورقيقة وودودة، وقبل كل شيء كانت لا تزال تحبه على الرغم من المشاكل التي يواجهانها تقريبًا منذ بداية زواجهما. ولو لم يكن حظهما عاثرًا، لكانت حياتهما مختلفة بالتأكيد.

الأيام والأسابيع التي جاءت بالأخص بعد الإجهاض الثالث كانت كابوسية. الليالي صارت قصيرة وغادرت سريعًا حياتهما مثل

الضباب والحب. فكر بسرعة، لا على العكس. الليالي مثل الأيام تسير بلا نهاية بشكل معذب وممل ولا أي اهتمام. إن الشعور بالركود واللامبالاة والخمول هو شعور كابوسي ولا سيما الشعور بالرفض. كيف يمكنك أن تحاربه؟ كان يجلس كثيرًا بجوار نافذة غرفته يتأمل الأفق والغروب لساعات. كان يسرح في البحر من أعلى ويراقب الأمواج تتهشم بقوة على الصخور وتتناثر.

كان يسرح بها بالساعات لأن هذا كان هو الشيء الوحيد الذي يهدئه، هذه الحركة الرتيبة كانت تسحره وتشتت ذهنه عن أحزانه وهمومه. كان في أحيان أخرى يرفع رأسه وينظر للغيوم في السماء ويشعر أن تكويناتها وأشكالها لم تكن سوى أشكال إلهية، رسائل مكتوبة بلغة أخرى صامتة دون حروف لا يستطيع أحدٌ قراءتها سوى هؤلاء البشر المختارين الذين يدركون بقلوبهم.

لم يكن من هؤلاء الذين بالرغم من حساسيتهم الشديدة ومشاعرهم الجارفة يؤمن بالغيبيات، ولكن، كان يعلم جيدًا أنها كانت في حاجة إلى معجزة لتوقظها من هذا الخمول الذي كانت تغرق فيه، معجزة تعيدها إلى الحياة، وإلا ستجرفها نحو هوة كابوسية مظلمة مرعبة. متى ستحدث هذه المعجزة يا تُرى، ماذا يجب عليه أن يفعل كي يساعدها؟ حاول كثيرًا وحارب الأمر، حارب حتى خارت قواه. حتى إنه لم تعد لديه شجاعة ولا قوة للحرب. ومحاولات الاستعطاف والمناشدة والمطالبة لم تعد تُجدي. بينما الجدرات صارت تعلو بينهما في كل مرة كان يطلب

منها أن يتحاورا بعقلانية، كان جدار آخر أقوى وأسمك من سابقه يُشيد بينهما.

***

وفي ظلام الليل انفجر في بكاء ونحيب طويل. لم يكن متأكدًا بالضبط من سبب البكاء. هل كان يبكي على زوجته التي تضيع منه، أم على حاله إذ حُرم من الحب والرقة والعطف أم من حقيقة أنه ضيع فرصة لقاء واعد مع الممثلة الجميلة من اليونان. ربما لكل هذا معًا.

كان متأكدًا من شيء واحد، وهو أن عليه أن يفعل كل ما في وسعه كي يكسب حياته من جديد، أن يعيدها إلى حيث بدأت. لم يكن هناك سبيل آخر. ربما، لم يفعل ما يكفي من أجل زواجه. ربما كان يتوجب عليه أن يبذل محاولات أكثر. عندما عاد لوعيه انطلق نحو بيته وهو أكثر ارتياحًا، تقريبًا مرتاح تمامًا، لكنه كان عازمًا أكثر من أي وقت مضى أن يحارب بكل ما أوتي من قوة. أن يبذل كل جهد ممكن للمرة الأخيرة، قبل أن يرحل بعيدًا عن إيليني للأبد. الآن لم يعد لديه اختيار.

***

حافظ ثوماس على الوعد الذي قطعه على نفسه. في الحقيقة كان يتجاوز ويتخطى كل قواه. فعل كل ما هو ممكن ومستحيل

حتى يفوز بزوجته مرة أخرى، كانت الخطوات مؤلمة ومنهكة وفي مرات عديدة تدفعه نحو هاوية اليأس. لكن قبل أن يغرق تمامًا في يأسه وقبل خطوة واحدة من حافة الهاوية التي كانا يمضيان نحوها بثبات، وقف الحظ بجانبهما وابتسم لهما، ربما لأول مرة بعد سنوات.

حملت إيليني مرة أخرى، وبعد بضعة أشهر ولدت طفلًا صحته جيدة في مستشفى الجالية حيث كانت تعمل أختها الكبيرة كاليوبي متطوعة مع زوجها الطبيب الشهير قبل أن يفتح عيادته الخاصة.

واتخدت الحياة نهجًا آخر ومتنفسًا جديدًا.

بعد قليل بدأت إيليني في التعافي النفسي، والخروج شيئًا فشيئًا من حالة الحزن المزمن، حتى تعافت تمامًا نفسيًّا من كل جروحها. عادت لها شهيتها للحياة واستعادت رقتها ومداعباتها ورغبتها في العشق كالماء الذي يجري في جدوله. ولم لا، فقد كانت تحمل بين ذراعيها معجزة.

كان ثوماس يفعل كل ما يستطيع حتى يحفظ وعده. أثبت أنه زوج صالح وقادر وأب طيب مثلما كان أبوه معه وجده من قبله بالنسبة لأبيه.

وبالفعل تغيرت حياة الزوجين جذريًّا.

صارت الأمور تسير على ما يرام دون أن يعكر صفوهما شيء، لم يعد هناك يأس ولا حزن ولا ألم.

لكن في كل مرة تحضر للإسكندرية أي فرقة يونانية فنية، كانت كل الجالية ترتدي أفضل ملابسها لكي تستقبلهم، كان قلب ثوماس يكاد ينفجر من شوقه لرؤيتها، ويتمنى في كل مرة أن تكون الممثلة الجميلة أحد أعضاء الفرقة القادمة.

كاليوبي باباستيفانوس

اليوم الرتيب يأتي في أعقاب يوم رتيب مماثل،

الأمور ذاتها ستحدث، ثم ستحدث من جديد.

اللحظات المشابهة تمر بنا، وتمضي.

كان صالون بناية الطبيب في كارتيه الإسكندرية الأرستقراطي، حيث كانت تقطن علية القوم في المدينة، غرفة مربعة تحتوي على أثاث أنيق ومكتبة ضخمة تقبع على الجانب الأيمن للقاعة لتشغل جدار الغرفة من أوله لآخره، بينما مدفأة كلاسيكية كبيرة الحجم تشغل الجانب المقابل.

بجوارها ثبتت قطعة أثاث «سكريتير» تخص ربة البيت، عبارة عن تحفة صغيرة اشتراها خريستفولوس من بائع أنتيكات شهير في باريس كهدية لزوجته في عيد زواجهما الأول. وهنا جعلته كاليوبي الركن الخاص بأدوات الكتابة خاصتها، أدراج أنيقة كانت تخفي بها دفترًا صغيرًا، دفتر يومياتها الذي بدأت تحافظ على التدوين فيه منذ اليوم الذي بدأ فيه أولادها يذهبون إلى

المدرسة وبقيت هي لساعات طويلة وحدها حتى يعودوا إليها.

دخلت كاليوبي إلى الصالة المهيبة للقصر. جالت قليلًا بها دون هدف وهي تتحسس القطع اللامعة الثمينة التي تزين دولاب حماتها، عادة قاتلة صارت أشبه بطقس إجباري، ثم جلست كما تعتاد على الأريكة القطيفة الرئيسة كي تشرب الشاي.

جالت بنظرها قليلًا في الغرفة الجميلة، الأثاث واللوحات. كلها كانت من الروائع ومرصوصة بذوق رفيع. في الواقع كانت كلها فائقة الجمال ومعتنى بها وبها تناغم عجيب، توازن منقطع النظير.

كلها، إلا حياتها الشخصية.

منذ سنوات وحياتها تسير على نفس المنوال دون أي إثارة أو اهتمامات سوى تلك الأيام التي كانت تعمل كمتطوعة في دار المسنين كانيسكيريو أو في أيام أخرى في مستشفى الجالية الذي كان يخدم فيه ويديره زوجها، لكن كل هذا في الفترة الأخيرة كان قد بدأ يرهقها ويعطيها الحد الأدنى من السعادة.

ثم إن الأولاد قد كبروا بما يكفي. البنت الكبرى ميرتو على وشك إنهاء دراستها المدرسية وبعد بضعة شهور ستغادر للدراسة في القاهرة. لم تعجبها فكرة أنها سوف تغادر البيت، لكنها راحت تفكر أنه ليس لديها الحق في أن تحرمها من حلمها أو أن تكسر أجنحتها. ابنها سيتم السادسة عشرة قريبًا،

وكما كانت كل الأمور تشير إلى أنه سوف يتبع مسيرة أبيه. من صغره كان مجتهدًا ومثابرًا ومنظمًا وجادًّا ومقررًا بالفعل ماذا سيفعل في حياته.

من صغره وهو يذهب مع والده إلى عيادته أو إلى المستشفى، ليتابع عن قرب الحالات ويعود فيما بعد ليستذكر دروسه دون أن يشتكي أبدًا أو يقترح استراحة أو لهوًا.

كانت ميرتو ابنتها تشبهها. كانت طفلة انعزالية تقريبًا مستغرقة في عالمها منذ كانت صغيرة. وإن لم يكن لديها سوى صديقتها أماليا، صديقة طفولتها الوحيدة والابنة الوحيدة لجارتهم الإيطالية في حيها القديم، لما خرجت ميرتو من المنزل إلا نادرًا.

دارت بعينيها مجددًا في الغرفة الواسعة وأثاثها المنحوت المهيب، الذي ورثته عن حماتها حتى استقرت على المكتبة الكبيرة على اليسار، كان نقلها عملية صعبة للغاية من القصر القديم. قرأت أكثر الكتب الموجودة، إذ إن عمل زوجها والتزاماته تشغله خارج البيت أغلب ساعات اليوم، بينما في أيام الآحاد فقلما يجد وقتًا لهم. كان يغلق على نفسه في غرفة المكتب ويقرأ بالساعات ويدرس أو يطلع على آخر التطوارات العلمية في تخصصه وقلما يخرج لتناول الطعام مع الأولاد فيما عدا الأعياد.

فعلى كل حال، لم يكن هناك أي تواصل حقيقي بينهما. كان السأم قد زحف بسرعة بينهما، ربما كان هذا من الشهور الأولى

لزواجهما.

في البداية لم تستسلم كاليوبي وكانت تبحث جاهدةً عن سبل ووسائل لتجدد باستمرار وصال العشق معه.

حاولت بكل السبل إثارة اشتياقه وخلق الدافع من أجل ممارسة الحب. بحثت عن تلك الأمور التي يمكنها أن تبدل ليالي السأم والملل الطويلة إلى ليالٍ مفعمة بالشغف والحب كي تمدد سعادة الزواج الذي بدا وكأنه يذبل وتتساقط أوراقه سريعًا. كانت تقترب منه كلما حل الليل. تجلس على ركبتيه وتدس رأسها بين أحضانه وتملأ وجهه وعنقه وصدره بالقبل، فعلت كل ما بوسعها كي تلهب اهتمامه وتثير شعلة العشق لديه. في ليالٍ أخرى كانت تأتي إليه كفتاة صغيرة تتوسل إليه ألا يستسلم. كانت تربت على كتفيه وتمسد عنقه وصدره ببطء شديد بأطراف أصابعها حتى تقوده إلى دروب نشوتها. وبالفعل، أو على الأقل في البداية، في أول عامين كانت تنجح أن تجذبه نحوها في الفراش حتى ولد ابنهما. لكن سريعًا ما حل الملل واللامبالاة راحت تزحف فوقه إلى أن سيطرت عليه. حينها بدأ يرفض لمساتها واقترابها منه، حتى إنه توقف تمامًا عن الاقتراب منها حتى عندما كانت تتوسل إليه بيأس وتتوسل انتباهه. لم تنفع توسلاتها ولا دموعها، فيما كان هناك جدار يرتفع بينهما في كل مرة كانت تجرؤ على الحديث في «الأمر» معه. كل مرة كان هذا الجدار يزداد سمكًا وصلابة من سابقه.

«ماذا يحدث لك؟» كانت تسأله عندما تمر ساعات دون أن يوجه لها نظرة. لكنه لم يكن يجيبها ويلجأ، كعادته،إلى صمت طويل، أو إلى كتبه، متجاهلًا تمامًا وجودها.

مع مرور السنين جوانبه الناعمة خَشنَت وصار صلبًا حتى إنه لم يعد يشعر بشيء. لا حب ولا ألم ولا سعادة ولا حزن ولا إثارة. صار عقله وقلبه في شتاء مستمر. كما لو كان قد قرر أن ينفي هذا الأمر من حياته تمامًا، أو بشكل أكثر فجاجة، كما كانت تفكر كاليوبي، كما لو أنه قد خصى كل رغبة تتعلق بالممارسة الجنسية وبأحاسيس الجسد. على الجانب الآخر كان قد كرس نفسه للعلم، وجه نحوه كل شيء، شغفه ورغبته المعاقة المعوقة ورغبته الجنسية.

تُرى هل هذا ما يسمونه رتابة وضجر وسأم العيش، وهو الأمر الذي جعل الصديقات لا يكففن عن الكلام في المرات القليلة التي كن يلتقين فيها في النادي البحري اليوناني لتناول الطعام أو لاحتساء القهوة بعد التسوق. أو ربما كان ثمة شيء أساسي وحاسم يغيب عن زواجهما؟

«في كثير من المرات كنت أتساءل؛ ما هو الشيء الذي سيجعلك سعيدًا يا خريستوفوروس؟». سألته ذات مرة بينما كان يستعد للذهاب لعيادته كالمعتاد.

لم يجبها، كانت تعلم أن سؤالها محض استهلاك بلاغي. لكنها

كانت تعرف بالتحديد ما هو الشيء الذي سيجعلها سعيدة. حبه لها، الذي لم يعد يستطع أن يعطيها إياه؟ لماذا؟

«الإرهاق» أجابها ذات يوم، في نوبة صراحة مفاجئة. لقد تعبت علاقتهما، أصابها مرض مزمن، لكن دونما أن يبذل أدنى جهد ليشرح السبب، تاركًا للمسكينة رفضًا جديدًا باردًا بلا تبرير. من حينها، لم يفتح أحدهما أو حتى يشر للموضوع. تُرى هل تستطيع أن تعيد الزمن للوراء وتصحح أخطاءها؟ وماذا كانت هذه الأخطاء؟

مرات عديدة كانت تتخيل خريستوفوروس يجد سعادته في أحضان نساء آخريات، لكن سريعًا ما طردت الفكرة من ذهنها. لم تشأ أن تفكر في الأمر ولو أنها تعرف جيدًا أن هناك نساء كثيرات يحسدنها على حظها. فقد كان خريستوفوروس أحد ألمع وأبرز أعضاء الجالية اليونانية وكان الكل يحترمونه ويثقون به، فلم يكن أبدًا ليخاطر بسمعته ومركزه.

وكان هذا حقيقيًّا.

لقد اعتزل خريستوفوروس العشق، لم يعد يطلب الحب من نساء أخريات مثلما يفعل الكثير من الرجال في عمره ولا سيما إذا كانوا ناجحين ومقتدرين مثله. كانت كاليوبي تشعر بهذا في أعماقها، كانت تعرف أن خطرًا كهذا ليس له وجود.

لكن إلى أي مدى تستطيع أن تحتمل حياة عقيمة من الإثارة

والعشق؟

أحد عشر عامًا! مروا كمرور الماء بين أصابع كفيها دون أن تشعر، حتى إن الأولاد كبروا وتقلصت مسؤوليتها تجاههم كثيرًا. الآن بالطبع قد اقتربت من الأربعين، لكن الشوق للعشق والرغبة لا يزالان ينبضان بقوة داخلها، تتخبط في خلاياها بقوة حتى إنها في بعض المرات كانت لا تطيق ولا تحتمل هذه الوحدة الشعورية، هذا العقم الشعوري الذي سيطر عليها مبكرًا.

تضخمت احتياجاتها الحيوية وصارت أشبه بفكوك وحوش ضارية. كانت تخشى كثيرًا أن تلتهمها فيما هي محبوسة في سجن بارد، كما كانت تخشى كثيرًا أن كل هذا الغضب والإحباط سينفجر فيها على شكل مرض خطير. وهكذا كانت تفتش في نفسها كثيرًا وتخضعها إلى فحوصات طبية دورية.

لكن التفكير المديد في هذا الاحتياج كان يرعبها، فكانت حينها تهدأ فقط أو تقنع نفسها بذلك بأن تصب كل اهتمامها وتركيزها في النعم التي منحها لها زواجها وعائلتها الجميلة، رافضةً تمامًا أن تستسلم إلى الأفكار السلبية التي تعذب عقلها وجسدها وتدفعها نحو هاوية يأس سحيقة. حتى المرة القادمة، حتى نوبة اليأس القادمة. تُرى ماذا كان سيحدث لو تزوجت ذلك الطالب الشاب؟ كيف ستكون حياتها اليوم؟ بالتأكيد لم تكن لتنعم برياش اليوم والخلو من الهموم واحترام وإعجاب الجالية.

وعليه، كل مرة تتذكره فيها، كان قلبها يمتلئ بحنين غريب، بينما إحساس دافئ عجيب ينبض بقوة في عروقها وحينها كانت تفعل كل ما في وسعها لتسيطر عليه وتطرد من رأسها سيل الأفكار الذي يغمرها.

ما زالت تذكره، دائمًا. في واقع الأمر، لم تنسه أبدًا ولم تخرجه من عقلها. كانت تتذكر كيف التقته. سقط فوقها حرفيًّا وهي في طريق عودتها من المدرسة مع صحبة من الطلاب. كثيرًا ما تشتاق إليه وإلى قبلاته الساخنة في أزقة المدينة المظلمة. الإحساس بالحنين الذي كان يصاحبها كحلم شباب لم يتحقق، لكنه حلم لم يختفِ أبدًا، ولا حتى الآن، بعد سنوات كثيرة مع الطبيب الشهير.

ربما يكون السبب في هذا هو الشعور الذي يكتنف البشر عندما تمر سنوات الشباب، أو ربما قصة حب لم تنتهِ في الشباب وتبقى ساكنة في أرواحهم. لم تكن تعرف، لم تبحث في الأمر قط، فلا فائدة من التفكير فيه.

لكنه هو أيضًا وبالرغم من وعوده بالولاء الأبدي، اختفى فجأة. ضاع من حياتها، تمامًا مثلما ظهر، عندما أنقذها من بين زحام طلاب يركضون ليلحقوا بالترام قبل أن يوقعوا بها. منذ اليوم الذي عرفته كانت تنتظره في نفس الشارع وهو دائمًا ما يأتيها ركضًا كنسيم ربيعي. معه شعرت كاليوبي بقلبها يدق لأول مرة، عاشت إثارة العشق التي تشبه السيل الذي جرفها في طريقه واستسلمت

له دون أي مقاومة.

سيطر عليها الشاب عامين كاملين، ثم اختفى تاركًا للمسكينة خلفه الحزن والنكران مرت شهور إلى أن تتعافى منه.

رغبتها للقائه مرة أخرى، أن تكون معه مرة أخرى، كانت رغبة تحرق دواخلها ببطء لسنوات طويلة. مرات عديدة كانت تتساءل عما حدث، أي خطأ اقترفت؟ فكل شيء كان يسير على ما يرام بينهما. لم تصل أبدًا إلى تفسير منطقي، في كل المرات التي بحثت فيها. على الرغم من مرور الأيام والأسابيع والشهور وعندما أيقنت أنه ليس هناك أمل في عودته، اعتزلت في المنزل ولم تخرج أبدًا ولا حتى إلى الكنيسة يوم الأحد، وهو الأمر الذي أزعج أبويها كثيرًا.

ولو لم تكن أزمة الزائدة الدودية التي كادت أن تودي بحياتها، لربما لم تكن لتتعرف على خريستوفوروس، كان طبيبًا شابًّا واعدًا منذ بداياته حتى في سنوات خدمته الأولى في مستشفى الجالية، كان الجميع يقدره كثيرًا ويعجب به وباجتهاده وأخلاقه ومهارته وموهبته. على طاولة الجراحة تعرفا وفي نفس المستشفى في المنطقة المجاورة للمبنى المشترك مع دار المسنين حيث كانت تعمل متطوعة، عرض عليها الزواج، بعد عامين، وبعد ضغط من والدها كي تتزوج حتى تصمت الألسن والأقاويل التي انتشرت ضده. كانت كاليوبي شابة صغيرة وجميلة ورزينة دون أي

متطلبات أو طموح في حياتها. هدف مريح بالنسبة لشخص كان يعرف في قرارة نفسه أنه لن يرتبط أبدًا بأي أحد.

وهكذا وعدتها الحياة ببداية جديدة مفعمة بالأمل بجوار رجل ناجح ذي شأن في العلم والمجتمع وليس ذلك فقط، بل هو رجل كانت تتمناه كل فتيات الجالية.

ماذا يمكنها أن تطلب من الحياة أكثر من هذا؟

ميرتو

قال للشاعر «إن الموسيقى التي يستحيل سماعها هي الأجمل».
وأنا أظن أن الأسمى على الإطلاق هو
الحياة التي يستحيل عيشها.

انتهت الرحلة ووقفت البنات أمام المدخل الرئيس لحدائق أنطونياذيس، أغلبهن كن من أبناء الجالية اليونانية ومن نفس الطبقة الاجتماعية وكن يتحدثن بحيوية مستمتعين بشمس الظهيرة.

نسائم أبريل الدافئة راحت تتنفس مبشرة بالربيع القادم الذي يأتي دائمًا مبكرًا في مصر، كانت البنات يمسكن بمعاطفهن في أيديهم وإن كان بعضهن قد تخلصن منه مبكرًا، بينما البعض الآخر كان ينتظر سيارات أسرهن أو سيارات الأجرة المدفوعة مسبقًا كي يعدن لبيوتهن بعد انتهاء الرحلة المدرسية. البعض الآخر -اللاتي كن يسكن في أحياء قريبة- لأنهن كن يحبن السير تحت الشمس الدافئة ويعدن لبيوتهن سيرًا على الأقدام.

في البداية كان الطريق أمام حدائق أنطونياذيس فارغًا تقريبًا، إلا من بعض المارة غير العابئين بالفتيات وعربتي حنطور بغطاء جلدي تدوران حول الحديقة باحثتين عن زبائن.

عندما ابتعد المارة بقي الشارع فارغًا إلا عن بعض خيالات البنات المستغرقات في الحديث.

إحداهما شبكت ذراعها بينما كانت تحمل باقة ورد بري جمعتها من الحديقة في يدها الأخرى. «حسنًا، ستقولين لي ماذا يحدث لكِ؟ لم تعودي كما كنتِ. أنتِ شاردة طيلة الوقت وبالكاد تسمعينني عندما أتحدث إليك. ماذا يشغل عقلك طيلة الوقت».

لم يكن صوت ميرتو يحمل أي نوع من الاستهجان. فقط اهتمام من أجل صديقة طفولتها وشحنة من القلق على صحتها إذ بدا بوضوح كأنها تعاني من مرض غريب مجهول الاسم. «ثم إنك شاحبة. قولي لي، ألا تأكلين؟» وعندما لم تجب أماليا، أضافت: «لماذا لا تمرين يومًا على أبي في عيادته؟ أريد أن يراكِ، لقد حدثته عنكِ، يعرف أنني أقلق لشأنك...».

كانت أماليا قد عزفت عن المدرسة في الفترة الأخيرة وكلما قابلتها كان سلوكها يبدو مختلفًا، غريبًا. كانت متعبة دائمًا ولم تكن قليلة تلك المرات التي غابت عن المدرسة أو عندما كانت تحضر كانت تتلقى العتاب والملاحظات من المديرة . إلى أن انقطعت عن دروسها وعن المدرسة كليةً. تحصلت على عمل في

أحد كافيهات الحلواني على الكورنيش، وفي المساء كانت تساعد أمها في الحياكة أو إصلاح الملابس المسرحية.

«أعرف. أفعل ما أستطيع، لكن صدقيني، الأمر يصعب علي للغاية». أجابت الفتاة الصغيرة بالأخير.

«يعني؟».

«الأمور تغيرت في البيت. أمي لم تتخط تمامًا وفاة أبي و...». توقفت أماليا، محاولة إيجاد تبرير، لكن ولتتحرر من الثقل الذي يطبق على صدرها، ثم أكملت: «ثم إن هذه الزيارات التي لا تنتهي أبدًا...».

«زيارات؟ ماذا تقصدين؟ أي نوع من الزيارات؟».

ترددت الفتاة مرة أخرى لكن لوقت أقصر هذه المرة. لم تعد تحتمل أن تخفي همها أكثر من هذا، وهكذا قررت أن تفشي بسرها لصديقتها: «أحيانًا، أقارب أمي من بعيد، وتارة أصدقاء المرحوم أبي القدامى...». توقفت ثانية فيما راحت دموعها تنهمر، فأشاحت بوجهها نحو الشارع كي تتجنب عيني صديقتها ثم تمتمت: «في الفترة الأخيرة ظهر ثمة أنجيلو...». شيء غريب في نبرة صوت صديقتها، لكن ميرتو لم تستطع أن تحدده.

«من هذا الـ أنجيلو؟» سألت ميرتو وهي تتفحص تعبيرات وجه صديقتها.

شحب وجه أماليا أكثر. ربما لم يجب أن تتحدث عن هذا الرجل، فكرت. لكن الفكرة جاءت متأخرة ولم يكن أمامها سوى أن تفتح قلبها تمامًا لصديقتها.

«أحد أبناء عمومة أمي جاء إلينا ولم يتزحزح. في البداية بالطبع كان يتركني وشأني، لكن الآن، كلما تغيب أمي يضايقني، لا يتركني أركز في عملي».

«بمعنى، كيف يضايقك؟» سألتها ميرتو وبدا على وجهها القلق.

وجه أماليا الشاحب شحوبًا يقترب للمرض ازداد شحوبًا. نعم، الآن تأكدت. لم يكن من الحكمة أن تحكي لصديقتها كلمة عن كل هذا. لكن ميرتو تربت بشكل مختلف، بالتأكيد سوف تفهم.

«ميرتو...» قالت بعد عناء مع الكلمات «لا أستطيع أن أفسر لك. أعلم أنك تهتمين لأمري حقيقة لكن لن تفهمي».

«لن أفهم ماذا؟ اشرحي لي كي أفهم».

كلام صديقتها وتعبيرها غير المحدد بالإضافة إلى حرصها جعل قلقها يتضخم على صديقتها. وعندما كانت أماليا تترنح وتتردد في الحديث، كان قلق وإصرار ميرتو يتضاعف إلا أنها لم تضغط عليها نزولًا على رغبتها. كان من الواضح أن أماليا لن تقول أكثر مما كشفته.

***

بعد أن انتهت ميرتو من واجباتها استقلت دراجتها وذهبت نحو شارع شريف لتحضر درس البيانو. في طريقها توقفت لتشتري دفتر موسيقى من قرطاسية كارنيسي، فرفض صاحب المحل أن يأخذ منها نقودًا إذ قال إنه مدين بالكثير لوالدها فشكرته بحرارة شاعرة بالرضا وبالفخر بوالدها.

أثناء خروجها من القرطاسية مبتهجة بما اشترته، وجدت أمامها فجأة رجلًا أنيقًا في الثلاثين من عمره تقريبًا عرفته على التو بغريزتها ومن وصف صديقتها له.

كان أنجيلو، ابن عم السيد فرانشيسكا وبشكل مؤقت جار جدتها منذ عام ونصف العام تقريبًا، وهو بالفعل رجل وسيم كما وصفوه. عندما واجهت الرجل لاحظت وسامته الفريدة وابتسامة التهكم على وجهه وعينيه المليئتين بالإيماءات وشعره الأشقر المشذب وجسده الفارع الجذاب، شعرت بشيء من القشعريرة يسري في بدنها. تذكرت كلام صديقتها أماليا في تلك الظهيرة قبل فترة بينما كانا في طريق عودتهما من الحديقة وأيضًا من كل ما يُحكى عنه في الجالية السكندرية وهمَّت لعبوره.

لكن الرجل الشاب توقف بوقاحة وثقة كبيرة أمامها ومنعها من العبور وحياها بصوت عميق وانحناءة. «صباح الخير يا ميرتو. أليس اسمك ميرتو؟».

أومأت له ميرتو بجفاء دون أن توجه له الحديث، وهمت بالمغادرة إلا أن الرجل أصر على الوقوف أمامها كحائط بشري، والآن اقترب منها أكثر حتى إنها كانت تشعر بأنفاسه. احمرت وجنتاها بشدة وبعفوية أشاحت برأسها نحو الطريق كي تتأكد من أنه ليس هناك أي أشخاص معروفين أو مارة ينظرون نحوها.

«دعني أمر من فضلك» قالت له وهي ترمقه بنظرة حادة وباردة لا تتناسب وعمرها، لكن دون أن تقوم بأي محاولة تذكر كي تبتعد عنه. في عيني الشاب الخضراوين ونظرته العميقة كان هناك شيء يقيد إرادتها ويثبتها في مكانها مما أصابها كثيرًا بالخوف.

«لم تتعجلين؟» سألها بنبرة لعوب لا تخلو من العتاب. «حدثتني عزيزتي أماليا عنكِ. أعرف أنك بنت مهذبة وناضجة وأعرف أيضًا أن لكِ أفكارًا تقدمية».

«أماليا؟» استطاعت أن تنطق ميرتو أخيرًا.

أومأ بالإيجاب: «حدثتني عن صداقتكما ويبدو أنها تعرفك جيدًا».

ميرتو لم تجب هذه المرة، لم تستطع أن تنطق بكلمة، ارتبك رأسها وتشتت من هذا اللقاء الغريب مع هذا الرجل المجهول.

«لكن لماذا لا تتحدثين؟ هل تخجلين يا عزيزتي؟».

آخر جملة قالها جياكمو أصابت هدفها بالضبط.

«ليس خجلًا» ردت ميرتو «لكن ليس لدينا ما نقوله» قالت له بحدة وبهجوم غريب كما لو استيقظت فجأة من خدرها.

«على العكس» أصر أنجيلو «لدينا الكثير لنتحدث عنه. ما قولك أن نذهب الليلة إلى السينما. عفوًا، نسيت أنك تلميذة. ما رأيك في الحفلة الماتينيه في إيديال، يقال إن فيلمًا فرنسيًّا رائعًا سيعرض مترجمًا. هل تحبين السينما؟».

وقاحة الرجل ونبرته المستفزة أصابتاها بالضيق. ماذا يريد منها بالضبط؟ ما غرض كل هذا الحوار؟ هل كان مدبرًا؟ لكن كيف يمكنه أن يعرف حقيقتها.

«يجب أن أعود فورًا إلى البيت» قالت له وهي تلقي بأعينها على الطريق، لم تحتمل نظرته الحاجة فوقها وكأنها تخترق عقلها وروحها.

«لكن أنا سأنتظرك على أي حال أمام السينما».

«ستنتظر كثيرًا» قالت له بتهكم لا يبدو أنه أثر فيه. على العكس، رفضها زاد من عزم أنجيلو لأنه بدلًا من أن يتركها تعبر مد يده ولفها حول ذراعها. «لا تغضبيني يا عزيزتي» قال هامسًا تقريبًا. «أنا ببساطة أريد منذ فترة أن نتعرف».

نظرت ميرتو إلى يده باستهجان يشي بالاشمئزاز، وقالت له بنبرة مهددة: «دع ذراعي وإلا سأطلب الشرطة».

لسبب ما لم تستطع هي أن تفسره لنفسها، بدلًا من أن تجري بعيدًا بسرعة، فضولها أملى عليها حتمية الانتظار. إصرار الرجل وأسلوبه الوقح مع فتاة صغيرة لا يعرفها وثقته في نفسه كانت بالنسبة لها تجربة جديدة منفرة وفي الوقت نفسه لا تقاوم.

***

تلك الليلة قادتها قدماها إلى السينما.

لم تعرف أي قوة دفعتها كي تصل إلى هناك، لكن عندما رأته من بعيد توترت كثيرًا. ولو أنها تعرف ماذا ينتظرها، غمرتها مشاعر متضاربة في تلك اللحظة.

ابتسمت على عجل كي تملأ الفراغ المرتبك، بينما في اللحظة نفسها كانت تحاول أن تهدئ من روع فيض الأفكار الذي غمر رأسها، وليس فقط، فيض من الإثارة انهمر عليها فجأة قبل أن يخونها الارتباك. لكن ابتسامته فقط كانت تكفي. كل المخاوف التي كانت قبل قليل تملؤها بالرفض، ذابت تمامًا في اللحظة التي تركت نفسها للعبته غير عابئة بالتبعات.

نعم، كان ينتظرها وبدا كأنه لم يفاجأ عندما رآها تقترب.

«أنا سعيد جدًّا لأنك جئتِ» همس لها وانحنى ليقبل وجنتها في وداعة. شعرت بشفاهه الرطبة. لم تنسحب ميرتو. لمسة الرجل

الشاب كانت مريحة، مطمئنة تقريبًا. للحظة اعتقدت أنها أساءت فهمه لكن أنجيلو لم يكن سوى شاب ربما يبحث عن قليل من الصحبة الرقيقة من الآخر، مثلها هي تمامًا فهي في أمس الحاجة لهذا. كما أنها لم تنسحب عندما شعرت بكف يده الأخرى تداعب خدها المتورد من الحمرة بطريقة وديعة ومهدئة.

أغمضت عينيها، لم يكن لديها القوة للتفاعل، خملت إرادتها، بل شُلت تمامًا.

اشتعل جسدها مثل الشعلة وشعرت بإحساس جديد لم تشعر به من قبل يغمرها تمامًا. لكن وبينما كانت عيناه تسبح في عينيها كما لو كان حلمًا، شعرت بأصابعه في لمح البصر تلمس يدها المتعرقة وتمسك بها. بعد ذلك رأت ميرتو تعبير وجهه يتغير فجأة، ضم حاجبية ونظر على يمين الشارع.

«تعالي معي» همس لها وضم يده حول كفها.

أطاعت ميرتو رغبة الشاب، تبعته بإخلاص وطاعة. لكن، لم يجذبها أنجلو نحو مدخل قاعة السينما كما كانت تتوقع. تركا السينما وسار بخطوات واسعة فابتعدا تمامًا عن السينما. في الحقيقة ابتعدا تمامًا عن الشارع الرئيس.

انحرفا يمينًا مسافة كبيرة حتى وصلا إلى شبكة من الأزقة فراحت رائحة القمامة الكريهة تضايقها. وعليه فقد غاص قلبها في معدتها وراح يضرب بسرعة وقوة بينما تعرقت كفها كثيرًا.

لكن، لم تستطع أن تفعل شيئًا.

«إلى أين نحن ذاهبون؟» سألت.

لم يجبها، استمر في سحبها حتى وصلا إلى باب نصف مفتوح لمدخل بناية قديمة فدخلا.

فور أن تأكد أن كل شيء تحت السيطرة وأنه لا يوجد أحد هناك، التفت إلى ميرتو بهدوء وبخفة حركة دفعها بوداعة نحو الحائط تحت المكيف. عندما لمس ظهرها السطح البارد شعرت بصدر الشاب يلمس صدرها دبت السخونة في جسدها، شعرت بشيء جديد عليها. بعد ذلك أخذ وجهها بين كفيه وسحبه نحو وجهه.

«منذ الصباح وأنا أفكر في هذه اللحظة يا حلوتي» قال لها بصوت خفيض. «منذ فترة وأنا أحلم بلقائك» همس لها بينما كانت أنفاسه تداعب جبهتها وبالضبط بين عينيها.

بحة صوته والظلام ونَفَسَه الدافئ يختلط مع أنفاسها، فدبت القشعريرة في بدنها وهي تحت يديه. ترنحت بلا وعي كما لو لم يكن لديه قوة للمقاومة أو كأن إرادتها خانتها مؤقتًا. الآن غرست أصابعه في خصلات شعرها الكثيف.

فجأة شعرت بنفس الرجل يقترب أكثر فأكثر وبسخونة على وجهها وفجأة شعرت بشفتيه على شفتيها برفق، قبلة رطبة تلقت ميرتو كأرض تشتاق للمطر.

قبلة أخرى وقبلة ثالثة لكن لم تكن قصيرة ولا مهذبة مثل التي سبقت. كانت متوحشة، طويلة خنقت أنفاسها بشكل خطير. بفطرة رد الفعل قاوم جسدها، حاولت الهروب لكن هذه المرة بحسم وبوعي تام، لكنه شل حركتها بثقل جسده وصار الأمر شيئًا فشيئًا يصبح مقززًا وملحًّا إلى أن صار مؤسفًا، منفرًا مما أصابها بالرعب.

استمر في تقبيلها على شفاهها وعنقها وكتفيها وعلى صدرها الذي نجح في تعريته حتى تحول حضنهما إلى معركة.

«اتركني من فضلك. ماذا تفعل؟ أريد أن أرحل» قالت له وخوف غريب يسيطر عليها.

كانت هناك نبرة غريبة في صوت الرجل، وأكثر في تعبير وجهه يتضح في الظلام أيقظها ودفعها للمقاومة.

فبالرغم من أن ميرتو لم تكن ترى وجهه ولا حركاته بوضوح إلا أن كل لمسة منه وإيقاع أنفاسه وسرعة تشنجاته كانت تفضح نيته.

«اتركني من فضلك» توسلت إليه ميرتو، لكن الرجل لم يسمع أو تظاهر بذلك. كررت ميرتو كلماتها مرات عديدة، لكن الرجل أصر في الضغط عليها وراح يلقي عليها جسده بغشم غير عابئ بتوسلاتها. وضعت ميرتو كفها على فمه لتمنعه بينما باليد الأخرى كانت تدفعه بكل ما أوتيت من قوة. عادت إلى وعيها

وصار رفضها واضحًا ومؤكدًا لكن كان من المستحيل عليها أن تنفض هذا الجسد من عليها.

«قلت لك اتركني» صاحت ميرتو هذه المرة بقوة حتى إن أنجيلو خشي لربما انتبه سكان البناية.

«أنا لست غبيًّا لأتركك تذهبين يا صغيرتي. جئت برغبتك، أليس كذلك؟» همس وأنفاسه الثقيلة تلامس وجهها. «منذ أن رأيتك لا أفكر سوى فيكِ أنتِ، جسدك الناعم، صدرك الـ...».

«أنت مقرف!» صاحت ميرتو فراح صدى صوتها يتردد في هذا المكان المظلم الخاوي.

وفي تلك اللحظة بالضبط ظهر ضوء من شمعة من الناحية اليمنى للدرج. «من هناك؟ من هناك في الأسفل؟ من عند البوابة؟ سأستدعي الشرطة!» سُمع صوت نسائي بالعربية من على مصطبة الدرج في الطابق الأول.

ارتبك أنجيلو من هذا التطور غير المتوقع لكنه لم يفقد هدوءه. على الفور رفع كف يده ووضعه على فم ميرتو. «لا تنطقي بكلمة» همس لها بصرامة مما زاد من قلقها وسرعة ضربات قلبها.

بعد لحظات عندما سمع صوت خطوات تبتعد وبابًا ينغلق، تنفس الصعداء. «سأكون مجنونًا إذا تركتك ترحلين...» همس في أذنها بشكل مقزز دون أن يرفع كفه من على فمها.

ركلته ميرتو في ساقه بكل قوتها ومع الارتباك والألم دفعته بعيدًا.

وعندما نحجت أن تتخلص من ثقل جسده خرجت مهرولة باحثة عن الحماية بين الناس فقطعت الطريق واختفت بين البشر ولم تلتفت خلفها ولا مرة واحدة...

***

كانت تحاول أن تمحي من ذاكرتها هذه الواقعة في المدخل المظلم لتلك البناية القديمة بكل وسيلة. وبالأخص عندما علمت أن ابن عم أماليا رحل فجأة للقاهرة ليباشر أعماله ومن هناك سيغادر إلى إيطاليا بلا عودة. انتشرت الإشاعات في الحي حول ظهور الرجل وبالأخص اختفاءه المفاجئ.

كان يتردد أنه قد عاد إلى بلاده كي يخدم جيش موسوليني؛ الحزب القومي الفاشي، آخرون كانوا يقولون إنه نجا من البوليس اليوناني الذي كان يطارده لأنه كان يقوم بأعمال منافية للقانون، هذا بخلاف سمعته السيئة التي كانت تلاحقة أينما ذهب، بينما آخرون كانوا يقولون بسخرية إنه هرب من الزواج بإحداهن.

في الحقيقة لم يكن أحد يعرف ماذا حدث ولم يُعرف أبدًا ماذا حدث.

على كل حال، لم يعد أنجيلو إلى بيت فرانشيسكا وميرتو شعرت بكثير من الارتياح عندما علمت بخبر رحيله. الآن ستستطيع أن تتحرك بحرية في شوارع المدينة بلا خوف. ونفس الشيء بالنسبة لأماليا. على الرغم من هذا، وفي أعماقها كانت تشعر بخيانة صديقتها لها. لهذا مر كثير من الوقت حتى تجد الشجاعة لتواجهها. كان يجب أن تراها، فقد مر وقت طويل، أسابيع وهي لا تعرف شيئًا عنها.

***

وصلت إلى بيت جدتها ركضًا تقريبًا، لم تلبث أن تلقي عليها التحية وهرولت نحو الصالون وفتحت النافذة الرئيسة للغرفة وانحنت على السور ونادت بصوت عالٍ نحو بيت المقابل «أماليا!».

هكذا عادة كان الأطفال يتواصلون. وهكذا تعرفا قبل أن يتقابلا في المدرسة. هي كانت منحنية على نافذة صالون جدتها عندما رأت عائلة السيد خارالمبو تنتقل إلى الشقة الفارغة ويستأجرونها في العمارة المقابلة. كانت أماليا ضئيلة الحجم تبدو ضعيفة تقف بجوار أمها الجميلة السيدة فرانشيسكا وتقبض على يدها بقوة. كان جمال تلك المرأة يتناقض مع ابنتها. كانت امرأة جميلة ومثيرة وكان الجميع يقول باستغراب «كيف يمكن أن تنجب ابنة ذابلة ومريضة؟».

أحبتها أكثر من كل صديقاتها وتضاعفت سعادتها عندما التقتها في المدرسة. منذ ذلك الحين ولا يتفارقان، كانتا تذهبان وتعودان معًا من المدرسة وفي مرات كثيرة كانتا تستذكران معًا في بيت أماليا أو في بيت جدتها عندما كانت تسمح لها أمها بذلك.

«أماليا!» جربت مرة أخرى، هذه المرة صاحت بصوت أعلى.

لكن لم يرد أحد. كانت نافذة الفتاة الشابة مغلقة وكذلك نافذة الصالون والسفرة وغرفة نوم أمها، مدت يدها وأغلقت النافذة وفي اللحظة نفسها رأت مصاريع النافذة للشقة المقابلة تفتح قليلًا.

في هذه اللحظة القصيرة استطاعت أن تميز رأسًا نسائيًّا خلف النافذة لكن لم تلحق ميرتو أن تميزه. ربما كانت السيدة فرانشيسكا فكرت ميرتو، لكنها حتى لم تومئ لها أو تفعل أي شيء لتطمئنها.

«سيدة فرانشيسكا، بونجورنو، هل تسمعينني؟» صاحت ميرتو في محاولة أخيرة للتواصل لكن دون جدوى. ابتعد الرأس الذي ظهر خياله من بين مصاريع النافذة عنها سريعًا في أعماق البيت واختفى في الخلفية المظلمة.

أحبطت ميرتو لكن القلق ازداد لديها عن ذي قبل، قررت أن تزور بيت صديقتها. على الأقل ستستطيع بهذه الطريقة أن تتحدث لأمها أو لأي امرأة كانت خلف النافذة نصف المفتوحة لكي تسأل

عن أماليا. كانت تقريبًا متأكدة أنها كانت السيدة فرانشيسكا.

التقت ميرتو جدتها التي كانت قد عادت من السوق لتوها بينما كانت تقطع صالة المنزل مسرعة.

«جدتي سأذهب للبيت المقابل سريعًا أريد أن أرى أماليا. قبل قليل ناديت على أمها لكنها لم تجب. أنا قلقة عليها».

أثينا نظرت إلى حفيدتها عابسة لكنها لم تقل شيئًا.

«ماذا يحدث يا جدتي؟ لماذا عبس وجهك؟».

«كانت أود أن أحدثك يا ابنتي...». ترددت أثينا وكأنها لا تدري إذا كان يجب عليها أن تكمل.

«ماذا يحدث؟».

«لقد غادرت أماليا... لم يعد هذا بيتهم».

«ماذا تعنين يا جدتي؟» سألتها وهي متفاجئة للغاية. «متى حدث هذا؟ ولماذا لم يقل لي أحد أي شيء؟».

اقتربت أثينا من حفيدتها ووضعت يديها على كتفيها وقالت لها: «لم ترحل يا ميرتو».

«لم ترحل؟ إذًا؟».

«هي في المستشفى».

«هل هي مريضة؟» همست ميرتو. «متى؟» نظرة جدتها كانت تشي بأن ما سوف تقوله سيكون مأساويًّا.

«ميرتو يا حبيبتي، مع الأسف البنت مريضة. هي في مستشفى الجالية منذ بضعة أيام» تحدثت بسرعة كما لو أنها أرادات أن تتخلص من هذا الثقل الذي تحمله وحدها منذ أيام.

كلمات السيدة العجوز ونبرة صوتها اليائسة صعقتها. مر وقت طويل حتى تستطيع أن تتكلم، سألتها وهي مضطربة: «كيف؟ متى؟».

لم تتحدث أثينا.

«ما مرضها؟ مما تعاني، ولماذا دخلت للمستشفى؟» تسرب إليها الذعر وتملكها.

«لا أعلم تفاصيل» أجابت أثينا «لكن قبل يومين أو ثلاثة قابلت أمها بالصدفة في الشارع، وكانت عائدة من المستشفى لتستريح في البيت قليلًا وقالت لي الأخبار السيئة. لقد سهرت عليها في الليلة السابقة وبدا عليها الإرهاق الشديد؛ حتى إنني تعرفت عليها بصعوبة».

«ماذا قالت لكِ؟» سألت ميرتو بلا صبر.

«قالت لي إن أماليا ليست على ما يرام منذ فترة، لكن في الأيام الأخيرة ساءت حالتها... رأى أبوكِ أنه من اللازم أن تنتقل

للمستشفى على الفور».

«أبي؟» قالت مندهشة: «ولماذا لم يقل لي شيئًا؟».

«ربما لم يشأ أن يقلقك يا بنتي».

«يقلقني؟ ماذا تقولين يا جدتي؟ وأمي هل تحالفت معه؟».

لم تقل أثينا شيئًا، نظرت فقط إلى حفيدتها بتأثر كبير.

«مم تعاني أماليا؟» كررت ميرتو سؤالها بصوت مرتعش.

ذاب الفزع السابق وحل محله الخوف.

استجمعت أثينا ما تبقى لها من قوة وانتصرت على ترددها وقررت أن تخبرها أخيرًا بالحقيقة كاملة. «أماليا تعاني من نزيف شديد، حاولت أن... أن تقوم وحدها بـ...» ترددت في إكمال الجملة.

«بماذا؟».

«لا فائدة من هذا يا ميرتو» قالت لها بينما سقط حجاب كثيف من الحزن وغطى وجه جدتها «أماليا أصيبت بتسمم في الدم وماتت ليلة أمس».

***

خبر وفاة الفتاة كان صدمة مدوية في الجالية اليونانية. في الحي انتشرت شائعات تقول بأن أماليا قد ماتت من أثر التلوث. فعلى الجانب الآخر فإن تفشي مرض السل قد تسبب في العديد من الوفيات حتى في المحافظات الكبرى وريف مصر حتى في الأحياء الراقية التي يقطنها «الخواجات»، في أحياء الأجانب أصحاب الامتيازات والذين تحيطهم الرفاهية والرياش والنظافة.

تناثرت الأقوال والشائعات من هنا وهناك كما يحدث دائمًا مع كل حدث صادم أو مع حلول أي حزن مهيب. الجيران قالوا إن سبب الوفاة هو الحياة السافرة لأمها التي أطلقت عنان التحرر بعد وفاة زوجها، وخرجت كثيرًا عن المألوف وصارت حياتها أشبه بحياة عاهرة. آخرون قالوا إن السبب هو أنجيلو، ابن عم فرانشيسكا المزعوم والذي ربما يكون قد نقل إليهم ميكروبًا من بيوت البغاء القاهرية التي كان يتردد عليها قبل أن يأتي للإسكندرية. أيًّا ما كان السبب، الحقيقة واحدة، كانوا يقولون: كانت أماليا بنتًا ضعيفة وسريعة المرض وأمها هي المسؤولة عن وفاتها.

انكسرت ميرتو من فرط هذا الوجع الغريب عليها. ألم حفر عميقًا بدواخلها وترك وصمة كبيرة، ألم الفقد والوداع، الوجه القاسي للبلوغ والنضج.

سينيورا فرانشيسكا

يأتي على الناس يوم

يتوجب عليهم فيه أن يقولوا نعم القاطعة أو لا القاطعة.

عادة يظهر في حياتنا فجأة أناس ذوو وجوه جميلة أو جذابة، يؤثرون بوجودهم ثم يقفزون إلى فراغ العدم بنفس الطريقة غير المتوقعة، دون سبب مفهوم أو هدف واضح.

وهناك آخرون، ربما ليسوا على نفس قدر الجاذبية كما نراها نحن، يمرون بهدوء ولامبالاة ولا يتبقى منهم سوى صورة باهتة، مجرد ذكرى عابرة، هذا لو وجدت، في أكثر المرات وفي أغلب الأحيان محشورة ومخفية بين ثنايا المخ.

وقليلون، ولحسن الحظ هم قليلون، أو ربما لا، يمضون للأبد في حياتنا بقوة دون أي مؤهلات تميزهم، وكأنهم قد أقسموا وحددوا هدف حياتهم من البداية قبل أن يعرفونا أن يبقوا للأبد فيها ليسيطروا عليها ويتحكموا فيها حتى في غيابهم. يأتون بيقين الغطرسة وثقة الجاذبية، التي نمنحها نحن لهم في أغلب

الأوقات أو ربما هي لديهم بالفعل، يتصرفون بحسم فيها مثل الشخصيات المسرحية المحفزة للدراما ثم بعد ذلك يهرعون ليختبئوا في كواليس المشهد.

يختبئون على عجل خلف الستارة ويتابعون حياتنا في صمت. يتربصون في صمت وقلوبهم تنبض من الإثارة وعدم الصبر، يشتاقون للاستمتاع بإنجازهم وبنتيجة أفعالهم التي كانوا هم من سببوها في المقام الأول، هكذا بمرورهم القصير البسيط في أغلب المرات. دون أي جهد أو تضحية تُذكر.

في الغالب بالطبع هم يجهلون ما سببوه لأنهم وبكل بساطة لا يبالون...

***

نحيفة متوسطة الطول لها شعر كستنائي داكن تربطه خلف رأسها وترتدي فستانًا داكنًا. وجهها أسمر من أثر التعرض للشمس المصرية تبرز عيون لوزية داكنة وحاجبان مرسومان وشفتان ممتلئتان وأنف إن لم يكن متناسقًا مع بقية الملامح إلا أنه كان يبرز جمال وجهها.

إذا انتبه إليها أحد سيعتقد أنها وبلا تردد لها ملامح امرأة فاتنة شرقية وسلوك وأسلوب أوروبية كوزموبوليتانية وهذا التناقض

في حد ذاته مع نظرتها دائمة الحزن التي تصحب هذه المرأة منذ أن فقدت ابنتها، زادتها جمالًا، وغموضًا.

الـ سينيورا فرانشيسكا... سينيورا فرانشيسكا الجميلة!

كيف تغيرت منذ أن انتقلت إلى الإسكندرية قبل بضعة أعوام. جيرانها لن ينسوا أبدًا اليوم الذي رأوا فيه المرأة لأول مرة.

كنت تجلس أمام مدخل العمارة ترتدي فستانًا ورديًّا أنيقًا وتمسك بيدها قبعة كريمية اللون وعليها شريط حريري أزرق تنتظر سيارة النقل التي تحمل أثاث منزلها الجديد.

نسيم البحر اللعوب كان يداعب شعرها الكثيف الطويل تحت القبعة وأطراف فستانها، بينما تحاول أن تلملهما دون جدوى. كانت فتاة شابة في ذلك الحين، أتمت لتوها العشرين أو الحادية والعشرين سنة من عمرها.

كان ذلك في أول يوم لانتقالها لبيتها الجديد في شارع ليبسيوس وكانت تبدو سعيدة خالية من الهموم. شعرها الطويل الكثيف يداعب كتفيها وبشرتها الناعمة بدت رائعة تحت شمس الصيف وملامحها الجميلة الدقيقة أبهرت الجميع. أكثر ما فيها إبهارًا كانت ابتسامتها.

لم تمر أبدًا دون ملاحظة، حتى عندما كانت تذهب إلى سوق السمك وترتدي ملابس عادية وحذاء بسيطًا مسطحًا. لم يروا

من قبل امرأة بهذا الجمال وهذه الفتنة في حيهم، كانت تشبه الدميات التي تزين فتارين محل الألعاب الذي يملكه السيد فارتان في وسط المدينة.

كان زوجها هو السيد خارالامبوس، رجل وسيم ومهذب وإن كان يكبرها ببضعة أعوام.

تعرف عليها في إيطاليا في إحدى رحلات عمله، عشقها بجنون وتزوجا هناك ثم جاء بها إلى مصر. في البداية كانا يعيشان في الحي اليهودي في شقة صغيرة حيث كان يعمل الرجل محاسبًا في متاجر الذهب «يعقوب» لكن عندما أنجبت فرانشيسكا أماليا انتقلا إلى الإسماعيلية.

حصل خارلامبوس على عمل في إحدى شركات القناة وكان الراتب جيدًا جدًّا. وهكذا تربت الصغيرة في بيئة رغدة.

عندما نقلت شركة الملاحة خارالامبوس إلى الإسكندرية، كانت أماليا قد بلغت السبع سنوات.

فرانشيسكا كانت دائمًا امرأة ودودة ومرحة على الرغم من الصعوبات التي واجهتها في البداية قبل أن تعتاد على الوضع، لكنها صارت محبوبة في وقت قصير. كانت تتجاذب أطراف الحديث مع الجميع بغض النظر عن جنسياتهم أو جذورهم أو طبقاتهم الاجتماعية. وكانت ودودة بنفس القدر مع بائع البطاطا المتجول أو بائع عصير القصب كما هي مع الأرستقراطيين.

يتذكرونها تقف في وسط فناء المدرسة تمسك بيد ابنتها الصغيرة وتنظر مبهوتة كما لو أنها لا تعرف إلى من تتحدث أو كما لو لم تكن جاهزة لتترك ابنتها.

في وقت قصير صارت أكثر شخصية محبوبة في الجالية. وبالأخص عندما كانت تذهب للصلاة في كنيسة أغيوس سافاس ولم تكن تذهب فقط إلى الكنائس الكاثوليكية في المدينة الكبيرة.

عندما كانت تذهب أماليا للمدرسة كان خارالامبوس يذهب لعمله، كانت تحب نزهاتها في المدينة أو زياراتها القصيرة للعائلات ذات الجذور الإيطالية . كان هذا يهدئها ويخفف عنها كما كانت تقول لزوجها، الحنين الذي كانت تشعر به تجاه وطنها وعائلتها التي تركتها مبكرًا كي تتزوج.

هذا غير أنها كانت اجتماعية ومنفتحة بطبعها ولم تكن تحتمل الوحدة في البيت أيًّا ما كان حجم ما يجب أن تنجزه. عندما عادت إلى الإسكندرية راعت أن توسع دائرة معارفها وتتعرف على عائلة أونجاريتي التي كانت بينهم علاقة قرابة من جانب عائلة والدها، كان السيد أونجاريتي عامل حفر في قناة السويس ومات في حادث عمل هناك بعد عامين من ميلاد ولده الصغير جوزيبي، تاركًا خلفه أرملة وولدين صغيران.

كانت فرانشيسكا معجبة بماريا لوناrديني زوجة الفقيد وكانت تزورها كلما سنحت لها الفرصة في الفرن الذي كانت تملكه

في إحدى ضواحي الإسكندرية. كانت تستقل الترام من ميدان القناصل وبعد قليل تصل إلى هناك. كانتا تتحدثان عن إيطاليا والغربة والحياة وأيضًا عن هذا المكان المضياف الذي صار وطنًا ثانيًا بالنسبة لهم ولأولادهم. عادة ما كانت تذهب إلى هناك بعد أن تذهب ابنتها إلى المدرسة. في البداية كان المحرك هو الرغبة في الحوار الحميم، لكن بعد ذلك كانت تذهب كي تساعد ماريا إذ إن المرأة التي كانت لا تزال شابة تعمل وتكدح كي تؤمن لأولادها المعيشة والدراسة في مؤسسات أفضل في الإسكندرية وخارج مصر. كانت تحدثها كثيرًا عن ابنها جوزيبي الذي كان يغيب هذه الفترة في فرنسا حيث كان يعمل في المكتب الإعلامي للسفارة الإيطالية في باريس. كان شخصًا ذا موهبة نادرة وروح رهيفة وكانت السيدة لونارتيني تؤمن تمامًا أن ابنها سيصبح ذا شأن يومًا ما وأنه سيغزو العالم بموهبته وقدراته.

ولكما كان يأتي ليزور أمه كان يحرص على أن يقضي أغلب اليوم معهم. في ذلك الحين كان جوزيبي يحكي عن مغامراته في الحرب الكبرى عندما جُند في سلاح المشاة للجيش الإيطالي على جبهة كامبانيا، أو يقرأ بعض أبيات من قصائدة. هناك في الخنادق كتب أول قصائده. كان يكتب ويقرأ لأبناء وطنه ويسليهم ويشد من أزرهم. في مرات عديدة كان يتحدث عن الشاعر اليوناني، وإن كانوا جيرانًا في شارع ليبسيوس، لم تكن فرانشيسكا تعرفه إلا من خلال وصف ومديح صديقه وشعره التقدمي.

كانت تستمتع كثيرًا بحكاياته وبالرغم من أنها لم تكن تفهم الكثير مما يقوله لم تكن تقاطعه أبدًا. لكنها كانت تعشق الشعر وكانت تحتفظ برسائلة بورع حتى موت أماليا.

لم تخف أبدًا عن زوجها إعجابها بجوزيبي. كانت تعشق خارالامبوس ولم تكن تتخيل حياتها بعيدًا عنه، لكن علاقتها بجوزيبي وبأمه كانت تملأ عندها فراغًا هامًّا. كانت تكمل لديها حاجة عميقة. وكانت تقول لزوجها إنها تعتقد أن عائلة أونجاريتي كانت تملأ لديها فراغ غياب عائلته بدرجة كبيرة، وأن لولاهم لبات حنينها إلى وطنها أكبر وأكثر وجعًا. في الحقيقة قد يكون لا يحتمل.

عندما ماتت السيدة لونارديني، عاشت فرانشيسكا أول تجربة لها في الفقد. الصداقة التي نمت بينهما كانت كبيرة وشعرت فرانشيسكا أنها فقدت شخصًا عزيزًا لديها. كانت موت هذه المرأة بمثابة علامة فارقة لفاصل جديد في حياتها.

كان خارالامبوس دائمًا حنونًا وكريمًا في مشاعره معها، لم يكن ينتقد اختياراتها في الأصدقاء ولم يتركها أبدًا للحزن. كان دائمًا ما يجد سبلًا كي يلهيها عن حزنها ويخفف عنها وحدتها التي كانت تشتد في الحقيقة يومًا بعد يوم ولا سيما في فترة أعياد الميلاد وعيد الفصح الكاثوليكي.

في تلك الأوقات كان حنين فرانشيسكا لأهلها يزداد وكان يتعكر

مزاجها وينطفئ وجهها.

ومع ذلك، كان خارالامبوس دائمًا بجوارها ليواسيها وكان يثير إعجاب الجميع بتفانيه النادر لزوجته. انقلبت الأمور رأسًا على عقب في حياتها عندما مات زوجها فجأة بعدما أصيب بأزمة قلبية حادة بينما كان في عمله. حدث هذا بعد أشهر قليلة من وفاة السيدة لونارتيني. عندما مات زوجها كانت أماليا لا تزال طفلة صغيرة، لكنها قد بدأت تظهر عليها بالفعل مشاكل صحية. كان الأب هو الرابط بين الأم والابنة، عماد الأسرة الصغيرة الذي غادر الحياة، فقدت فرانشيسكا عقلها وسندها الرئيس وحاميها ولم تعد تدري ماذا تفعل أو على من تستند. كما لو أنها فقدت الأرض من تحت قدميها. في البداية لم تخرج من البيت لأيام، انغلقت على نفسها وعلى عالمها الحزين وكانت ترفض أن تقابل أصدقاءها القدامى. في الحقيقة، لم تكن لديها الشجاعة أو الاستعداد النفسي كي ترى أحدًا. بعد ذلك، وعندما خرجت من عزلتها، شخصيتها الوديعة كانت قد تغيرت تمامًا.

صار طبعها حادًّا وعصبيًّا بينما بدأ أصدقاء جُدد يدخلون بيتها وحياتها. في واقع الأمر تحولت إلى شخص لم يعد أي من أصدقائها ومعارفها القدامى يعرفه.

من حينها وصار أغلب الناس في الحي اليوناني يتجنبونها ويبتعدون عن صحبتها وبالأخص النساء؛ لأن الإشاعات صارت

تحوم حول أرملة الفقيد خارالامبوس في الحي غير أنهم كانوا يخشون من سحرها الإيطالي وجمالها الفاتن على أزواجهن الطيبين ذوي الفضيلة والأخلاق الحميدة.

ابتعاد ولامبالاة وسلوك الأصدقاء والمعارف خاصة من طرف زوجها أحزنها كثيرًا، وجعلها أكثر فتورًا حتى توقفت تمامًا علاقاتها باليونانيين والمعارف القدامى ما عدا أنطوان أوبيان، صاحب المنزل الأرميني الذي أجرت له غرفة في شقتها حتى تستطيع أن تفي بمصاريف علاج ابنتها. شعر هو بيأسها وبضيق حالها فكلما سنحت الفرصة كان يعطيها بعض الأدوار في العروض التي كان يقدمها. في مرات أخرى كانت تساعد بطلات مسرحياته التي ينتجها أو كانت تصلح ملابس الممثلين. في ذلك الوقت فقط عرفت فرانشيسكا الممثلة السكندرية الشهيرة فيكتوريا بابا أنطونيو؛ الممثلة التي كانت تعجبها كثيرًا عندما كانت تذهب للمسرح مع خارالامبوس.

كانت تعشق المسرح وتشعر بامتنان كبير لصاحب المنزل لمساعدته له. كانت تقول مازحة لو أن الحياة سارت بشكل مختلف بالنسبة لها لكانت اختارت مجال التمثيل.

نمت علاقة صداقة بين المرأتين، على الأقل في البداية، إلا أنها انطفأت بعد حين حيث المنافسة والغيرة بين السيدتين الجميلتين وبخاصة من جانب الممثلة سريعًا ما صارت تشكل

عائقًا لاستمرار صداقتهما.

الجميلة الطموحة فيكتوريا كانت تخشى من حضور الأرملة الفاتنة وأنها ستسرق منها نظرات الإعجاب أو على الأقل ستحصل على نصيبها من اهتمامهم، وربما كانت تشكل تهديدًا على قوتها الحصرية في التحية والإعجاب، وهكذا حرصت أن تُبعدها بمهارة.

ساءت الأمور مع فرانشيسكا الجميلة عندما قدمت أنجيلو لابنتها وللجيران على أنه أحد أقاربها ـرجل له سمعة سيئة وأخلاق وضيعةـ كان ظهوره مفاجئًا في حياتها. عندما دخل الرجل الجذاب إلى بيتهم وإلى قلب فرانشيسكا، انحرفت حياتها بشكل خطير. ليس فقط بالنسبة لها ولكن أيضًا بالنسبة لابنتها التي بالإضافة إلى مشاكلها الصحية كانت قد كبرت ودخلت مرحلة المراهقة.

حاولت دون جدوى أن تصدق أن الرجل هذا يمكنه أن يعوض زوجها خارلامبوس الحنون الطيب، لكن كانت يائسة تمامًا، والإنسان اليائس يميل دائمًا لأن ينسج واقعًا صوريًّا موازيًا ويخدع نفسه ويصدق أنه حقيقي، واقع لم يكن هناك قط لفرانشيسكا. لم يتردد الرجل لحظة كي يستغل وضع المرأة وطبيعتها الضعيفة ولابنتها أيضًا ولعب معهما، الأم والابنة لعبته القذرة.

عطفًا على هذا أن الموت التراجيدي للصغيرة أماليا بعد فترة قصيرة، قد أطلق رصاصة الرحمة على مشاعر المرأة التي حولت

مشاعرها إلى شيء بارد تمامًا. كل ما كان يستهويها في الماضي صار بلا طعم، بينما غطى حزن وحداد عميق على رغبتها وشهيتها في الحياة، لم يعد يمتعها شيء. كانت تروح وتجيء في الشوارع صامته بعيدة عن كل شيء ونادرًا ما تتحدث مع الآخرين. كانت مستغرقة بشكل كبير في عالمها الصامت، حتى إن الكثيرين صاروا يعتقدون في أن ثمة مرضًا نفسيًّا قد أصابها.

من الخيال إلى الورق. عبور وَعِر، وبحر خطر. للوهلة الأولى، تبدو المسافة قصيرة، ومع ذلك فيا لها من رحلة طويلة، وكم هي خطيرة أحيانًا بالنسبة للسفن التي تقوم بها.

بعد عشر سنوات، بعد نهاية دراستها وعودتها للإسكندرية، وبالرغم من أنها لم تكن قد أتمت الخامسة والثلاثين، كانت قد صارت بالفعل ممثلة ناجحة ومشهورة بأداء الأدوار الصعبة وحققت عدة نجاحات كتبت عنها الصحافة اليونانية والأجنبية في مصر.

في كثير من المرات كان يدب خلاف بين الجرائد الأجنبية، حول الحملة الدعائية للأعمال التي كانت تشارك فيها بينما كانت المبالغ المدفوعة تتعدى قيمة العروض المسرحية معًا. ولم تكن قليلة تلك المرات التي ألحت في طلبها فرق مسرحية شهيرة للعمل معها مثل كوتوبولي أو ليمو وفيما بعد أنذرياذي، عندما كانوا يقدمون عروضهم المسرحية في الإسكندرية والقاهرة

أو في مدن أخرى كبيرة لبلاد النيل الجميلة.

جاذبية وموهبة وإنجازات فيكتوريا في الحقل المسرحي صار حديثًا دائمًا ليس فقط بين اليونانين والجاليات الأجنبية في المدن الكبرى في مصر، ولكن أيضًا بين عمالقة المال ومسؤولين حكوميين معروفين. كانت حديثًا دائمًا بين الشباب المجندين في الكتائب الإنجليزية الذين استقروا في مصر في تلك الفترة، ولم تكن قليلة تلك المرات التي ذهبوا ليشاهدوا عروضها المسرحية حتى وإن كانت باللغة اليونانية، فقط لكي يبدوا إعجابهم ويستمتعوا بجمالها الساحر الغامض إذ إن ملامحها وملامح وجهها بالتناسق مع جسدها المثير كما كانوا يصفونه، كان يجعلها تشبه ملكة فرعونية أكثر من كونها أوروبية كوزموبوليتانية.

حتى إن بعضًا منهم في أوقات الاستراحة أو السُّكر كانوا يقارنونها بنجمات هوليود مثل ديتريش ولمار ويانج، وكانت دائمًا تفوز بالرغم من أن ملامحها لم تكن غربية، الذي أصاب جموع الرجال بالهوس في تلك الفترة، بينما كانت المراهنات تنزل كالمطر على من سيحظى بحبها.

كانت تثير الجمهور حرفيًا عندما كانت تلعب أدوار البطولة بالأخص في الكلاسيكيات وأيضًا في المسرحيات المعاصرة التي كانت تعرضها في المسارح.

الطبقة العليا بأسرها في الإسكندرية والقاهرة ومدن مصر

الكبرى، كانوا يعرفونها وقد شاهدوها على الأقل مرة واحدة على خشبة المسرح وانبهروا وصفقوا لها طويلًا.

لكن، لم تقتصر شهرتها فقط على مصر، كان لفيكتوريا أيضًا بعض العروض المسرحية في فرنسا حيث لعبت دور البطولة وتركت انطباعًا جيدًا لدى عشاق المسرح الفرنسيين والنقاد ولا سيما المتزمتين منهم.

كما قامت ببعض الرحلات الفنية إلى كازابلانكا والخرطوم وبيروت وكانت تحظى دومًا بنفس النجاح ونفس حرارة التصفيق. حرارة الصيف وحدة الهتافات والصفير والتصفيق اللامنتهي وتعليقات الإعجاب خارج غرفتها في المسرح، ومظاهر الإعجاب من الرجال من كل الأعمار داخل وخارج قاعات المسرح، باقات الورود التي تهدى لها تعبيرًا عن الانبهار بأدائها الرائع وموهبتها النادرة وجمالها الفريد الذي كان يظهر على وجوه الجميع حولها كلما مرت بينهم أو من أمامهم.

كانت فيكتوريا تشعر بهم، عندما يجتمعون دائمًا حولها يوميًّا خالقين ستارة من الذهب، غطاءً لامعًا بينها وبين الآخرين، بين عالمها الخيالي الرائع والأوهام وبين عالم الآخرين الواقعي الرتيب التافه، وكان هذا الغطاء يرتفع ويكبر مع الوقت. بالنسبة لها، كان عالم المسرح المزيف منذ سن مبكرة لم يكن هو الأكثر صدقًا

وواقعية، على العكس، كان غير مهم على الإطلاق بالنسبة لها...

ثم إنها بعد أن تلقت تصفيق وإعجاب واعتماد الجمهور المتنوع والنقاد في كل مدينة كانت تذهب إليها، كانت تشعر بمزيد من الثقة في نفسها فيما يخص مستقبلها وحياتها العملية في هذا المجال كثير التنافسية الذي اختارته، وكان كل من يتعرف عليها كفنانة يؤمن بأنها خلقت لتكون مشهورة.

طريق طويل مفروش بالذهب كان ينفرد تحت أقدامها، وكان كل المطلوب منها هو أن تسير فيه بخطىً ثابتة.

أما حياتها الشخصية فكانت سرًّا غامضًا جدًّا نجحت فيكتوريا في أن تحافظ عليه كعينيها. ليس فقط لأن طابع العصر المحافظ آنذاك كان يتطلب السرية ولا سيما فيما يخص الأمور الشخصية وشؤون القلب والحب، ولا بسبب أن هناك وجودًا لشخص قد يثير النظرات والاهتمام من قبل الآخرين، ولكن لأنه في الحقيقة كل ما كان يتعلق بالعلاقة الحقيقية والحياة قد عاشته بالفعل على خشبة المسرح كما أن هذا لن يساعدها في تطورها كممثلة، أي إنه لم يكن هناك سبب لوجوده بالنسبة لها وللآخرين.

لم يكن هناك شيء أو أي شخص يستحق أن يشغلها عن أهدافها ومسيرتها التي شقتها بكثير من الجهد طيلة هذه السنين. لا شيء، ولا أحد.

كانت لديها هذه القناعة أو ربما شرط قد وضعته هي لنفسها

مبكرًا، ربما كان من الفترة التي عاشت فيها لأول مرة وحدها في أثينا عندما استقرت هناك مؤقتًا من أجل دراستها. هكذا كانت علاقاتها مع الرجال مؤقتة مقتضبة وضحلة وكان اهتمامها بها يشح ويبهت فتمسحها من عقلها تمامًا كما لو لم تكن أبدًا، أو كما لو كانت شيئًا متدنيًا أو أدوارًا فاشلة أدتها فحرصت أن تطمس من ذاكرتها كل ما يضايقها أو يسبب لها الألم. لم تكن ترغب في الشعور بالأمل، لم تر أمامها سوى النجاح.

كل شيء في حياتها كانت تخططه بمهارة فائقة لمخرج مسرحي ماهر وخبير.

في مرات كثيرة عندما كانت تؤدي دور البطولة في إحدى المسرحيات، وكان يصعب عليها أن تتخلص من سطوة الشخصية عليها، كانت تلاحظ نفسها أنها تتصرف مع من حولها أو أحد عشاقها بالشخصية نفسها.

والمفارقة، ولحسن الحظ أن فيكتوريا نفسها هي من اكتشفت في نفسها هذه الصفة، كانت واعية لهذا تمامًا كلما حدث. إدراك هذه الحقيقة لم يخِفها أبدًا، لم يثبط من عزيمتها، بل ساعدها أكثر لتحقق هدفها ودفعها لمزيد من الكمال في أداء أدوارها.

بسبب كل هذا، ولأن شخصيتها قد تشكلت من العديد من العناصر المتناقضة التي أربكت من حولها وفتنتهم في الوقت نفسه. إذ إنها حتى عندما لم تكن على خشبة المسرح بعد، كانت

فيكتوريا تلعب أدوارًا بنجاح كبير، الحياة نفسها بالنسبة لها كانت مسرحًا ضخمًا تتنفس فيه.

مع مرور الزمن استطاعت أن تخلق قواعدها الخاصة ومعاييرها الشخصية في كل ما يتعلق بالحياة وعملها وعلاقاتها الشخصية، حتى إنها طورت عالمًا خاصًّا للمبادئ والأخلاقيات كانت وحدها من تستطيع أن تتحرك فيها بلا مضايقات ولا سيطرة على الذات ولا نقد ذاتي ولا شعور بالذنب. كانت تبرر تصرفاتها كثيرًا باستدعاء جمل مُسرّية تبرر أفعالها بشكل لا لبس فيه.

تحصنت بهذا العالم المتناقض الذي خلقته لنفسها، وكانت تخشى التزحزح عن الحدود التي خطتها من انهيار المبنى الذي شيدته لتعيش فيه وتعمل بداخله محمية من كل شيء.

لم تحاول فيكتوريا قط التخلص من هذه السمات والقناعات الشخصية في حياتها، على الرغم من أنها في فترة ما اعتقدت أنها حتى لو استطاعت أن تفرض على نفسها أن تعيش ما يسميه البعض «حياة طبيعية « كما يراها الآخرون على الأقل، فستكون حياتها أشبه بتمثيل دور بلا طعم ولا معنى ولا يروق لها. ولماذا تمثل دورًا لا يعني لها شيئًا؟

بعد سنوات وعندما أيقنت أنها حققت مكانة عالية في مجالها وليس هناك أي خطر لتفقد تلك المكانة، وبينما النساء في عمرها كان لهن عائلات وأولاد كبار، فكرت أن تترك نفسها حرة لتقع

في الحب، دون أي تدخل من المنطق البارد أو من القواعد التي أرستها هي لنفسها لكي تعيش الحب ببساطة دون أي تعقيدات أو أوهام.

فالعمر يتسرب كالماء بين الأصابع بسلاسة وسرعة لا هوادة فيها ولا سيما عندما ظهرت أول تجاعيد على وجهها، بدأ القلق يتسرب إلى قلبها.

حينها تعرفت على نيكولاس فافياذيس، أحد ألمع أبناء الجالية والمثقفين المعروفين في الجالية اليونانية القاهرية، ولو أنه صديق حميم للشاعر الغريب، والذي لم يحاول قط أن يجاملها أو يتقرب منها مثل اليونانين الآخرين أو أبناء الجاليات الأجنبية الأخرى، وعندما تصادف أن تقابلا في أحد المطاعم الفاخرة للمدينة، كان يراعي دائمًا أن يتجاهل وجودها تمامًا وبشكل واضح.

حاولت فكتوريا أن تحظى باهتمامه دون جدوى، ولم يحدث أبدًا أن قبل دعوتها حتى في تلك اللقاءات والحفلات الكبيرة عندما كانت تلقي بعض أبيات من قصائده المعروفة.

هكذا، وفي إحدى زيارات نيكولاس فافياذيس للإسكندرية، وقبل قليل من رحيل قسطنطين لليونان ليكمل علاجه، زارها وحده في المسرح.

حينها كانت تلعب دورًا في مسرحية «رعشة الشعلة» لـ ميريه

شارل وحققت نجاحًا باهرًا ولا سيما على المستوى النقدي، حتى إن فيكتوريا شعرت أنها تعيش أعظم لحظة في حياتها المهنية.

عندما انتهى العرض المسرحي ومع أصداء صياح الجمهور وصفيره المدوي في المسرح الكبير، انتظر فافياذيس بصبر دوره كي يزورها في غرفتها بعد المسرحية.

منذ ذلك اليوم أخذ يزورها بانتظام، وعادة كانا يغادران معًا بعد نهاية العرض ويصحبها إلى بيتها وفي كل مرة كان يحييها مودعًا أمام مدخل منزلها، كانت تشعر بأنه ليس مستعدًّا ليتركها.

في ليلة ما، عندما كان لمرة أخرى على وشك المغادرة -وإن كان لا يريد الرجل أبدًا أن يبتعد عنهاـ لم تترك فيكتوريا يده. وضعت كفه بين يديها معبرة عن رغبتها في بقائها بالقرب منها.

«للأبد» أضافت بطريقة مسرحية!

***

جلست على المقعد الصغير أمام المرآة المحاطة بأضواء قوية ولاحظت وجهها بعناية. في الحقيقة وعلى الرغم من أنها لم تنم جيدًا لأيام من فرط توترها، إلا أنها وبالرغم عمرها، طزاجة بشرتها ووجهها لم تخنها أبدًا. حتى في الأيام التي كانت تتألم فيها من البروفات المسرحية المجهدة. ربما لم يكن هناك سبب لقلقها.

نعم، دائمًا كانت تشبه نسمة صباحية مصرية لذيذة، نسمة مصحوبة بتعبير طفولي تخدع حتى أقرب الناس إليها. وجهها المستدير كانت بساطة طفولية معسولة تتعارض بوضوح مع شخصيتها المعقدة والبرود الذي أحاطت نفسها به كدرع لحمايتها من توابع سذاجتها وطيبتها.

فعلى كل حال الوسط الفني لم يكن يقبل بأخطاء كهذه، كما كانت تقول لنفسها في كل مرة كانت على وشك أن تجرفها مشاعرها. براءتها ومشاعرها لم تكن سوى أسلحة خطيرة لو وقعت في أيادي المنافسين ستتوجه على الفور تجاهها وتسبب لها خسائر فادحة.

طرق الباب، لكنها لم تجب للطارق على الفور. ربما فكرت أنها لم تسمع أول مرة، مرة أخرى طرق الباب الآن بشكل أقوى هذه المرة على الباب الخشبي.

بالرغم من هذا، لم يبد أن فيكتوريا قد اختفت، كانت تعلم جيدًا من الذي خارج غرفتها.

محاولات اقتراب زميلها في بطولة المسرحية ليحظى بحبها كانت واضحة في الفترة الأخيرة وكانت تحاول صده دون جدوى، بالرغم من أنها قد فتنت من إصراره وجرأته التي كانت تتخطى هذا وتصل إلى الوقاحة.

مشاعره نحوها كانت تقوى مع الوقت ومجاملاته المستمرة

ومحاولاته والنظرات ذات المغزى على خشبة المسرح وليس فقط، كانت تزيد من أنانيتها ويمنحها شعورًا جيدًا للإحساس بذاتها. حتى إنه ضبطت نفسها تستجيب بلا وعي إلى هذا الحوار الغامض معه وبعد ذلك تتساءل كيف يمكن أن يحدث هذا الشيء، لو تركت نفسها شيئًا فشيئًا للانجذاب الذي تشعره تجاهه؛ انجذاب من أول لحظة قابلته فيها. ماذا سيحدث لو تركت نفسها، لو سمحت لنفسها للانجراف في لعبة الحب في هذا الوضع المتناقض الذي وضعتها فيه الصدفة؟

هي، أبدًا لم تكبت رغباتها، ولم تضع حدودًا لما تريده، كانت تتأمل وتفكر مليًّا ثم تتذكر ثانيةً أنها وحيدة، مثلما كانت أبدًا، وتتجادل مع ذاتها حول غبائها وسذاجتها.

كانت تشعر بالارتياح نحو نيكولاس فافياذيس، ربما كانت تحبه، بطريقتها بالطبع، لكن جاذبية وحضور هذا الرجل الشاب على المسرح وعلى الأرض كانت مبهرة وساحرة.

كما أن دورها لم يعطها أي مساحة لعدم الاهتمام، حيث كانت تلازمه في مشاهد كثيرة في المسرحية. نظرته في نهاية المشهد الثاني في ذلك اليوم لم تكن عادية، كانت تحمل رسائل شوق لا يدع مجالًا للشك أو الاعتراض بينما كانت يداه تضغطان بقوة على يديها في مشهد العناق قبل النهاية بقليل، جعل الخاتم الذي أهداه لها فافياذيس دليلًا على الحب والوفاء يُغرس في لحم

أصبعها مما اضطرها إلى تضميده.

في آخر لحظة أمسكت على صراخها حتى لا تثير شكوك زملائها الذي يتابعون عن كثب كما لو أنهم يعرفون أنه في لحظة ما سوف تسقط الأقنعة. لكن الرجل قد تجاوز حدود التسامح شعرت فيكتوريا بذلك. بعد قليل سترفض الرجل وسيتوقف عن محاولاته.

رجال مثل أندرياس لا تنتظر لوقت طويل، وليس لديهم صبر لأي امرأة حتى لو كانت طاغية الجمال مثل فيكتوريا، وهي في الحقيقة كانت تعرف هذا جيدًا، قدر معرفتها بنفسها وقدراتها. الإجابة التي كان ينتظرها ولم يتردد في أن يظهر عدم صبره وغضبه لسوء استغلال صبره في كل فرصة.

من جانبها هي فعلت كل شيء حتى تمد الوصال بينهما وتحافظ على اهتمامه، أن تقلب ناره بكل السبل الأنثوية، أحيانًا باستخدام جمالها وجاذبيتها وأحيانًا أخرى لاجئة للفطرة الأنثوية أو إلى أمور تعلمتها عبر السنين من أدوارها.

كانت تضبط نفسها وهي تسعى دائمًا إلى إيجاد سبل كي تجدد نيران اهتمام الرجل الشاب وحبه، دون أن تكون متأكدة كيف أو أين سيؤدي كل هذا، وأمام زواج وشيك محتمل من رجل مثل فافياذيس. كان من الصعب عليها أن تسيطر على جموحها وأن تهدئ من روع حاجتها لسرقة عيون وانطباعات الآخرين

والحصول على تأكيد دائم على طبيعتها الأنثوية والجنسية ولا سيما في السنوات الأخيرة عندما بدأ شبابها اليانع يتخلى عنها حتى ولو بشكل غير محسوس ولا ملحوظ.

نيكولاس فافياذيس

أجلس وأحلم. صنعت بالفن
رغبات وعواطف، أشياء مبهمة،
قامات ووجوهًا، وذكريات غير مؤكدة
عن حب لانهائي.
فلأكرس إذًا للفن حياتي.

نيكولاس فافياذيس، كان واحدًا من أهم أعضاء المجتمع اليوناني المصري، غير كونه أحد المؤسسين للمجلة الأدبية الأشهر «غراماتا» التي كان يكتب فيها خلاصة المفكرين من اليونانين المتمصرين، كما كان يكتب مقالات في مجلات وصحف أجنبية هامة التي كانت تصدر بثلاث لغات، الفرنسية والعربية واليونانية.

انضم منذ سنوات شبابه إلى الحركة اليسارية المصرية، في البداية في فريق ساكيلاري ياناكاكي الشيوعي في القاهرة، بينما مع الرسام السكندري كيرياكوس ماجاناري وستراتيس تسيركاس

ويونانيين مصريين آخرين كانوا على وشك إنشاء «مركز الفكر اليوناني بالإسكندرية». كانت له علاقات جيدة مع مفكرين إيطاليين وفرنسيين وعُرَض عليه بالفعل أن يكون عضوًا في منظمة Ligue Pacifiste متعددة الجنسيات التي أسسها السويسري بول جاكو ديسكوبيه وسرعان ما تولى تنسيق القسم اليوناني للمنظمة مع مثقف آخر من مستواه الفكري.

منذ المرة الأولى التي رآها فيها على خشبة المسرح قرر ألا يدع امرأة كهذه تفلت من بين أصابعه، كان يعرف أنه سيندم طيلة حياته إذا تركها. لم يكن متأكدًا، لكن في نوبة صراحة اعتقد أنه قد اعترف بهذا بالفعل.

جمال تلك المرأة وقوة شخصيتها بالإضافة إلى طبيعتها المتناقضة أسرته وغمرته كالسيل حتى إنه صار يخشى على نفسه.

منذ تلك الليلة، وتلك اللحظة التي تبادلا فيها قبلة خارج مدخل منزلها عندما كان يرافقها وصارت صورتها تطارده للأبد. لم يكن يصدق أن امرأة كفيكتوريا بهذا الجمال وهذه الشخصية يمكن أن تقع في حبه وتمنحه شغفًا كهذا. ليس لعدم ثقته بنفسه في العشق والحب أو في قدرته أن يُسعد امرأة أو حتى ولائه وتفانيه في الحياة الزوجية، ولكن لأنه بعد تجربته المريرة في الطلاق من زوجته الأولى، كان قد أغلق باب احتمال وقوعه في الحب

مرة أخرى وأن يعيش حياة زوجية رتيبة، بل أراد أن يعيش حياة هادئة يختارها لنفسه.

لكن منذ تلك الليلة مع الممثلة الجميلة عندما ضغط بقوة على يديها؛ ضغط عليها بقوة حتى إنه شعر بيده تتعرق وترتعش بلا وعي بين يديها. دخلت فيكتوريا حياته فبددت سكونها وحركت المياه الراكدة وأعطت لحياته متنفسًا جديدًا قويًّا كريح عاتية.

عشقه لهذه المرأة سيطر عليه كليةً!

في تلك الليلة اقتربت بوجهها من وجهه وطبعت قبلة ناعمة على شفتيه، فاستجاب لنعومتها بجبن مرتعش في البداية لكن سرعان ما ذاب وحل اندفاع وتصميم رجل يعرف في فنون الحب، فتحولت النعومة إلى قوة تقترب جامحة أدهشت فيكتوريا وأسعدتها.

عندما نظر إلى عينيها لم تقل شيئًا للحظات. ولا حتى هو استطاع أن ينطق بكلمة، ربما انتظر ليتأكد أنها لم تندم في اللحظة التالية أو ربما خمن دعوتها الصامتة وانتظر منها أن تنطقها.

ثم قالت له بصوت خفيض إنها لا تريد أن تفضي الليلة وحيدة، وبينما كانت لا تزال تنظر إليه بنفس المظهر الواثق والجريء، طلبت منه البقاء بالقرب منها، لقضاء الليلة معها، فنشطت فورة الحب التي شعر بها منذ أول مرة رآها.

«أريد أن تبقى معي الليلة» همست، بينما تقوقعت بين أحضانه.

«هل أنتِ متأكدة؟» سألها بصوت هامس، فقط ليتأكد هو نفسه أنه سمع ما سمعه.

«لا، معك حق. أريد أن تبقى معي... للأبد!».

تبين أن نيكولاس فافياذيس عاشقًا كريمًا مرهف الإحساس، لم تعش فيكتوريا من قبل صراحة في المشاعر وشعورًا بالأمان مع رجل من قبل. أدهشتها مشاعره وعشقه وغمرها تمامًا كموج البحر وأحاط جسدها المشتعل كنسمة صيف باردة بعد يوم حار. حياتها العاطفية التي كانت صحراء جرداء قاحلة خالية من أي مشاعر عميقة ارتوت الآن وكان لها طعم ورائحة لم تذقه ولم تشمها من قبل مع رجال من قبل ممن كانوا حولها وتأكد لها شعورها بأن هذا الرجل يستحق أن يكون بجوارها لبقية حياتها.

***

منذ أن عرف فيكتوريا، بدا اليوم الربيعي الحار بشمسه المحرقة الذي يبدأ أمام عينيه بدا وكأنه يعده بمستقبل أكثر إشراقًا من حاضره العنيد، وأنه يعد بأيام مثيرة قادمة. حركة المرور في شوارع المدينة التي لا تنقطع صارت تشبه الاحتفالية. لطالما كانت الإسكندرية مهرجانًا للألوان لا ينتهي، هرج ومرج الناس

في الشوارع والزحام كان مثل عرض مسرحي صباحي ونهاري وليلي مستمر.

بينما كان مستغرقًا في تفكيره عن الزواج القادم، ظهر أمامه فجأة رجل وسيم أنيق في منتصف الثلاثينيات من عمره، تعرف عليه على الفور.

قابله صدفة قبل فترة محاطًا بجمع من الفتيات المتحمسات خارج المسرح، وأدرك أنه زميل البطولة في المسرحية مع فيكتوريا. رجل مشهور يعلم الجميع عنه أن له ماضٍ مظلم ومعروف بحياته العاطفية المثيرة والثرية ومغامراته مع الفرق الفرنسية الفنية وضحاياه من النساء. كان يونانيًّا من أم فرنسية ويتصرف كزير نساء فرنسي.

عندما نظر إلى الرجل الوسيم بنظرته المغوية وعينيه الخضراوين اللافتتين وشعره الأشقر شعر بقشعريرة مقززة تسري في بدنه. تذكر على الفور صورته بين أيدي الفتاة التي تعمل في المسرح وتعبير وجهها الولهان تجاه الرجل.

لم تعر فيكتوريا أي اهتمام للصورة التي تحملها الفتاة بعشق جم؛ لأنها كانت مشغولة بأمور أخرى تتعلق بحياتها الجديدة معه. كانا قد قررا أن يعيشا في بيت عائلته فور زواجهما.

عندما اقترب الرجل الوسيم بجسده المهيب وبنظرة عينيه الخضراوين تظاهر بأنه يعبره وأنه لم يتعرف عليه.

«بونجور، كومون سا فا...؟» قال له بابتسامة غرور كشفت عن أسنانه اللامعة بينما يتطاير شرر الثقة من عينيه وهو يمد له يده ليصافحه.

نظر إليه دون أن ينطق بكلمة وتظاهر بأنه يحاول تذكر من هو أو بأنه ليس متأكدًا بما يذكره.

«حسنًا، لا تعرف من أنا؟» أكمل باليونانية وبدا كما لو شعر بالإهانة بعض الشيء هذه المرة، لكنه أكمل بلا مبالاة: «أنا على كل حال أعرفك جيدًا. قرأت مقالاتك في مجلة الثقافة الناطقة باليونانية والفرنسية».

نظر إليه بمزيج من الدهشة وقدر من عدم التصديق. لم يتوقع أن مجلة كهذه يمكن أن تقرأ من قبل رجل مثل أندريه. ومن ثم، وبينما يمد يده ليصافحه سأله «ومن أنت...؟».

«أندرياس فيينوغلو، وينادونني، أندريه فينون، لو كنت تفضل» أجاب الرجل ثم أضاف «فرنسي من أم يونانية وبطل مسرحية خطيبتك التي ستعرضها فرقة أنطوان أوبيان في الخريف...» كان صوته يصدح بثقة مقززة.

ثم تذكر نيكولاس فجأة وأجابه بأدبه الشديد الذي يميزه. «آه، نعم. فرصة سعيدة وسامحني لو لم أتعرف عليك على الفور». ثم رد عليه أندريه وهو يحرر كفه من المصافحة: «ليس هناك مشكلة، صدقني. لكن اسمح لي أن أقول لك إنني في الحقيقة

محظوظ جدًّا أنني سأمثل معها على خشبة المسرح».

«شكرًا جزيلًا».

«هي بخلاف كونها ممثلة عظيمة فجمالها وشخصيتها يسحران. أحييك بشدة على حسن اختيارك».

أعجبته مجاملات الرجل لخطيبته وضايقته في الوقت نفسه. لكنه اكتفى بأن يشكره بجدية «أشكرك جدًّا على كلماتك الرقيقة يا سيد فينوغلو».

«أندريه، أو أندرياس، كيفما تفضل. وأنا لا أجامل، في الحقيقة هي جميلة جدًّا». أصر الرجل مما أثار استياء نيكولاس.

***

سرعان ما انتشر عرض الزواج المثير، وزاد من إثارته ما أثير حول أن نجمة المسرح الكبيرة قد رفضت عرضًا كبيرًا للعمل في الخارج من أجله.

رفض عرض عمل كهذا وبالأخص في الخارج، عرض يغار منه أكبر منافسيها، صار موضوعًا دائمًا للنميمة بين رجال ونساء الجالية وفي الصالونات والمقاهي للمدينة الكوزموبوليتانية.

وأيضًا حقيقة أن الرجل الذي حظي بقلبها كان من رجال الجالية القاهرية وهو أحد المثقفين المتميزين وله إنجازاته وأيضًا ثروة

كبيرة ورثها من عائلته. كانت فيلته نقطة جذب لكل المفكرين في المدينة، بينما القصر الذي ورثه عن جده في القاهرة كان يحتوي على أكبر مكتبة خاصة.

كلما عاد إلى الإسكندرية، المدينة التي ولد فيها، ولا سيما عندما كان يتواجد مع صديقة الحميم وهو الأمر الذي كان محور الحوارات في التجمعات والمقاهي اليونانية، بينما لم تغب أبدًا التعليقات اللاذعة والنكات حول أن ما بين الرجلين هو أكثر من مجرد صداقة. لكن لم يهتم أي منهما لهذه التعليقات التي بدت وكأنها تسلية في كل مرة يراقبون تحركاتهم، وعندما كان نيكولاس يتواجد في الإسكندرية للعمل أو لحضور أي فعالية ثقافية حيث كانت الحياة الثقافية في ذلك الوقت ثرية وحية ومليئة بالمفكرين والمثقفين اليونانين والأجانب.

لم يكن نيكولاس ينتقد أحدًا أبدًا أو أي شيء، ولا سيما فيكتوريا. لم يكن ينتقد حماسها أبدًا على العكس كان دائمًا ما يقول لها إن لديها موهبة مدهشة وإنها تستطيع أن تحقق أي شيء ترغب فيه في الحياة، يكفي فقط أن تريده. كان يشجعها دائمًا حتى عندما كان يفتر حماسها عند نهاية البروفات وقبل افتتاح المسرحية.

قرآ معًا نص المسرحية التي ستعرض قريبًا في المسارح وتدخل بالطبع فيه مرتين حتى يناسب أسلوبها وشخصيتها مما أدهش فيكتوريا لمرة أخرى.

لكن العجيب في الأمر هو أن فيكتوريا لم تكن تقبل أبدًا أي إرشادات أو نصائح من أحد، سوى في مرات قليلة وحالات نادرة وفقط من المخرج، لكنها قبلت ملاحظاته ونصائحه وهو الأمر الذي أسعده كثيرًا.

أهدى لها نيكولاس فافياذيس حبها وبخلاف وضعه المتميز في المجتمع أهدى لها أيضًا شيئًا لا يقدر بثمن، حريتها. لم يكن يضغط عليها أو يحجم وضعها في المجتمع. كان يكفيه أن يتنفس بجوراها أن يستنشق عبيرها ويشعر بجسدها الدافئ بجواره. لم يتذمر أبدًا من تعبيرات إعجاب الرجال الذين يقتربون منها والتي أحيانًا ما كانت تقترب من الوقاحة، حتى وهو بجوارها متناسين أنهما مرتبطان ويستعدان للزواج. كان يعرف أن فيكتوريا تستمتع بإحساس الحرية المطلقة بجواره وأن هذا هو العنصر الأساسي المكون لعلاقتهما. مثلما كانت تعرف أن حبه لها واضح ونقي ومطلق مما كان يعزز ثقتها بأنها ستعيش معه حياتها كما تريدها هي.

كان نيكولاس حاد الذكاء ولماحًا، كان يعلم جيدًا أن النساء مثل فيكتوريا لا يتحملن الكبت أو مشاهد الغيرة، وأنهن سيفردن أجنحتهن بسرعة ليطرن بعيدًا إذا شعرن أنهن محاصرات في حياة رتيبة مليئة بالغيرة وغضب وإهانات.

فوق كل هذا كان أرقى من مظاهر البرجوازية الصغيرة. لقد

كان رجلًا سابقًا لعصره، رجلًا ذا أفكار تقدمية وليبرالية، لم يفاجئ من حوله في كثير من الأحيان بشكل متحفظ فحسب، بل دخل أيضًا في صراع مع ما يمثله.

في بعض الأحيان، في الحقيقة كان يثير تعليقات واستياء الكثيرين بل وغضب الأصدقاء، وخاصة أخاه الذي كان يعبر عن اعتراضه كثيرًا وكان يعبر عن استيائه من صداقته بالشاعر ليس الآن فقط بعد مرور السنين وقد توطدت علاقته بالشاعر، بل كان يعترض على هذه الصداقة منذ عشرين عامًا حين تعرفا لأول مرة. كان نيكولاس فافياذيس من نوعية الأصدقاء القلائل في الحقيقة الذي كان يقبل التناقض وغرائبية أي شخص والطريقة التي يريد أن يعيش بها ويقبل الناس كما هم، ومنهم صديقه الشاعر الذي بقي دائمًا من أحد محبي شعره بالرغم من المرات التي كان لا يتفق مع موضوعاته الأدبية .

في الماضي حين كان نيكولاس شابًّا بلا خبرة كان يتبعه أينما ذهب، كان بالنسبة له بطلًا ومعلمًا ومعجبًا متواضعًا ومشجعًا له. لكن مع مرور الوقت تحولت مشاعر الإعجاب إلى احترام عميق. لكن كل هذا تحول في النهاية إلى شيء يقترب من الشفقة إذ كانت القاعة تنهار من تحت أقدامهم. كيف تغير هكذا، ليس في مظهره فقط. شيء من عالم آخر لون وجهه لدرجة أخافته. أحزنه إهماله لصحته ورفضه لزيارة الطبيب وقد نصحه بأن يذهب للطبيب الشهير خريستوفورس باباستيفانوس.

لم ينته شيء، قال وأومأ له الآخر بالموافقة دون أن يعلق.

بخلاف كل هذا كان البحث والدراسة ونصوصه النقدية، تحوز على اهتمام كبير من كل التعليقات السخيفة والإشاعات التي كانت تحوم حوله خفية وعلانية، أو عندما يغيب عن العاصمة وعن علاقته بالممثلة.

في بعض الأحيان حتى وفي حضوره، وكأنه بمحض الصدفة، عن قصد أو بسذاجة من بعض الأقارب والأصدقاء الذين كانوا يعرفون أن الحريات أمر خطير وأنه بمرور الوقت سيهدد التوازن في علاقاته.

ارتباطه المفاجئ بفيكتوريا بابايوانو ولا سيما خبر خطبتهما الذي غذى الثرثرة والنميمة في الطبقة الأرستقراطية ومقاهي المدينة، ولم يكن عدد قليل من الأصدقاء الذين كانوا معترضين على خططه وعلى علاقته بصديقه في المدينة الجميلة.

بالرغم من أن الكثيرين عبروا عن فرحتهم بعلاقته بفيكتوريا، كان هناك الذين يخفون استياءهم وخوفهم بأن زواجًا كهذا لن يضيف للرجل في حياته بل إنه سوف يسيء إليه وهذا بحجة أن فيكتوريا كانت بالفعل محبوبة وفائقة الجمال وودودة، إلا أنها كانت طموحة للغاية وربما قبلت هذا الزواج كي تصعد بطبقتها الاجتماعية ويُعترف بها في الطبقة المخملية. رأي كان يدحضه كل من كان يؤيد المرأة بحماس إذ إنها بالفعل ناجحة ولا تنتظر

أي اعتراف فهي مشهورة وثرية وناجحة أكثر من أي امرأة في مجالها. فقد رفضت عرضًا مغريًا كان سيضمن لها شهرة عالميًّا ومالًا وفيرًا مثلما كان يشاع.

إلا أن الجميع قد أجمع على أن فيكتوريا وفافياذيس كانا شخصيتين مختلفتين تمامًا، وإن كان من الوهلة الأولى يبدوان متناسبين وأشاروا بالطبع إلى الاختلافات كما يرونها. حتى قسطنطين، على الرغم من إجهاده ومرضه، لم يتجاهل التعبير عن نفسه علانية بتلك الفكاهة الخاصة التي أثيرت، في سخرية منه وتحفظاته ومعارضته لمثل هذا القرار التافه والمتسرع. ولكن بعد ذلك انتهى به الأمر بشيء مثل السخرية والنقد الذاتي «ولكن من أنا لأحكم على عواطف الآخرين؟».

***

لم يكن نيكولاس فافياذيس يتخيل حياته بعيدًا عنها، هكذا قرر أن ينتقل إلى الإسكندرية. ستكون فرصة رائعة ليبقى وقتًا أطول بجوارها وبالقرب من صديقه، ولا سيما الآن فهو يحتاج إليه أكثر من أي وقت مضى، ولكي يتابع أيضًا عن كثب المركز الثقافي الذي كان يحلم بتأسيسه وبأن يلعب دورًا محوريًّا في النشاط الثقافي للمدينة.

لكن لم يكن فقط هذا ما يشغله في الفترة الأخيرة، ولا حتى كل

ما يتعلق بزواجه والانتقال الدائم للإسكندرية، أمر بداخله كان يعذبه، شيء لكنه لم يستطع أن يحدده.

في أعماقه كان يشعر أن في علاقتهما هناك شيئًا لا يستطيع تحديده، شيئًا يصيبه بالرعب ويسبب له القلق. لكن سريعًا ما كان يطرد تلك الأفكار السلبية من عقله ويذكر نفسه أنها هي من اختارته، ربما قبل أن يبادر هو في عرض الزواج عليها.

وكان حقيقيًّا، إذ إن قرارها لتتزوجه قد اتخذته من قبل، وقد اعترفت له بهذا في لحظة حميمية. قررت هذا حتى قبل أن يبيح لها بمشاعره في تلك الليلة التي كان يصحبها للمنزل بعد العرض المسرحي وقد مرت على تعارفهم أسابيع قليلة.

أندرياس فينوغلو

كان من الرشاقة والذكاء معًا
إلى حد أَلا يتخذ العلاقة بصورة مأساوية؛
ومن الوسامة -في الوجه والجسد معًا-
إلى حد ألا يهتز كبرياؤه الجسدي.

أوشكت البروفات على الانتهاء، والفرقة تستعد لعرض الافتتاح خلال أسبوع على مسرح «محمد علي»، أكبر مسارح مصر بالإسكندرية وكل الجاليات الأجنبية والصحافة الأجنبية كانت في الانتظار، إذ إن المسرحية كانت باللغة الفرنسية وملأت النشرات الدعائية وصور أبطال المسرحية شوارع المدينة، بينما الصحف المحلية راحت تكتب مرارًا وتكرارًا عن أهم أحداث العام. السلطات المحلية كانت مدعوة للحدث وليس فقط من الإسكندرية، كما جهزت وأعدت أماكن خاصة بشكل يليق لاستقبال شباب العائلة المالكة مع أصدقائهم وكذلك شخصيات بارزة من الحكومة.

كل أعضاء الفريق المسرحي كانوا في حالة غليان وقلق، لتنفيذ

تعليمات المخرج المتواصلة الذي كان يتجول بينهم باستمرار.

مخرج المسرحية أنطوان أوبيان كان بطبيعته شخصًا عاشقًا للتفاصيل وقلوقًا، وبخلاف أداء بطلي المسرحية الذي كان يعتبره رائعًا، كان يخشى من أداء بقية الفريق إذ إن غالبيتهم كانوا قليلي الخبرة إما من طلاب المسرح أو الممثلين الهواة المتطوعين من الجاليات الأجنبية.

تعليماته نحو الجميع كانت لا تنتهي، والخلافات بالأخص مع أندريه كانت دائمة إذ إن الممثل الموهوب بخلاف أنانيته كان مغرورًا ثبت أنه غير متعاون وغير مطيع.

بعد إحدى البروفات الطويلة التي أرهقت كل الممثلين، بغض النظر عن حجم الأدوار التي يلعبونها، قرر المخرج أن يكتفي بهذا القدر لذلك اليوم. قال لهم إن الجميع يحتاجون إلى استراحة طويلة وطلب منهم الحضور في اليوم التالي، وهو القرار الذي لقي ترحابًا كبيرًا من كل الممثلين بالأخص فيكتوريا وأندريه اللذين استقبلا القرار بارتياح شديد.

كان أندريه أول من غادر خشبة المسرح وانسحب إلى غرفته بالمسرح وأغلق الباب خلفه.

بعد ثماني ساعات من التدريبات بلا استراحة كان يشعر بارهاق شديد، وإن كان راضيًا عن نفسه تمامًا. وبالرغم من تعليقات المخرج أنطوان التي كان بها قليل من السلبية بخصوص مشهد

معين، كان مطلوبًا فيه من أندريه أن يؤدي دور رجل نادم يعذبه الشعور بالذنب. وهو ما جاء على عكس ما كان يريد أن يؤديه بطريقته متجاهلًا تعليمات المخرج وإرشاداته.

لم يكن يلتفت أكثر للشعور بالذنب والندم. بالنسبة له الشعور بالذنب كان ضعفًا يخنق حرية الإنسان ويحدد قواه ويجعله فريسة للتردد ويقف عائقًا بينه وبين الحياة وتحقيق أهدافه. كان يعتقد أن هذا الشعور يحد من تطور المرء ومن إحساسه بوجوده.

لم يكن قد تخلص كلية من خوفه من الافتتاح، بالطبع، كلهم، لكنه كان راضيًا تمامًا عن أدائه وليقل هذا الشاذ ما يشاء. قال في نفسه بغضب.

عندما كان مستعدًّا للمغادرة توقف قليلًا أمام غرفة فيكتوريا.

«من؟» سألت بصوت منهك بينما في أعماقها كانت تعرف من هو الطارق. كانت تنتظره.

«أنا أندريه يا حلوتي» بدا صوته مختلفًا عن المرات السابقة. ودودًا، كالعادة لكن به نبرة مغايرة.

نظرت مرة أخرى إلى نفسها في المرآة لا للتأكيد على جمالها أو مظهرها، لكن لتؤمن لنفسها لحظات لتفكر كيف ستتعامل مع زائرها.

كانت تعرف أنه قد تمادى بعض الشيء وأنه قد حان وقت صده، وهو ما كان يجب أن يحدث منذ فترة وبما يليق بامرأة تستعد للزواج، أو قبول عرض من شأنه أن يعرضها لصدمات مع معضلات الاختيار أو شعور بالذنب وهو الأمر الذي لم تكن مستعدة له.

«ادخل» قالت وهي تستجمع كل هدوئها، بينما بداخلها كانت قررت أن تنهي هذه اللعبة كي تهدأ للأبد.

فُتح الباب محدثًا صريرًا ضعيفًا لكن فيكتوريا لم تلتفت لترى الزائر، نظرت فقط إلى المرآة وابتسمت بأدب.

«هل أزعجك؟».

«لا بالطبع، على العكس. ادخل». سمعت نفسها فأدركت أن قرارها لصده لم يكن حاسمًا، تراجعت مثلما تفعل في كل مرة تواجه نظرته الثاقبة التي تقول الكثير دون أن ينطق بكلمة.

«فكرت أن أودعك وأقول لك تصبحين على خير بقبلة قبل أن أرحل» قال لها وارتسمت على وجهه ابتسامة مغوية، وأضاف: «ولأقول لكِ مرة أخرى إنكِ كنتِ رائعة!».

ابتسمت فيكتوريا باستحسان وقالت: «تبالغ كعادتك»، وهي تخفي بعض الرضا من مديحه. رأى الرجل أن بها شيئًا مختلفًا في ابتسامتها لم يستطع تحديد ماهيته، لكنه كان واضحًا أنه يوترها.

«مفتون كالعادة، هذا ما كان يجب أن أقوله» أضاف وهو يغير نبرة صوته الذي لم يعد ودودًا ولا محايدًا، مثلما كان قبل قليل لكن بطريقة تفوح منها بقوة شوق عاشق وشغف ورغبة.

ضحكت فيكتوريا بارتباك لكنها لم تقل شيئًا، ولم تتحرك من مكانها عند المرآة.

«لماذا لا تصدقين أنني مفتون بكِ؟» قال لها مباشرة دون مراوغة مما فاجأها.

نظر إليها بإصرار في المرآة ولم يضف أي كلمة. تُرى إلى أي مدى يمكنه أن يذهب اليوم؟ لقد جاء وقد قرر أن يحصل على ما وُعد به طيلة هذا الوقت.

وعندما لم يبد عليها الانزعاج، استمر أندريه متخليًا عن أي أثر من الحرص: «حتى إنني لم أعد أفكر في أي امرأة أخرى».

وقف خلفها بالضبط وثبّت عينيه بعينيها على سطح المرآة.

خفضت فيكتوريا جفنيها، لقد جاءت اللحظة التي يجب فيها أن تتصرف.

«إلى متى سوف أنتظرك يا فيكتوريا؟ ألا تظنين أنني انتظرت كثيرًا؟».

ضمت المرأة حاجبيها متهربة من إجابته. فلم تقرر بعد ما

يجب أن تقوله أو كيف تتعامل مع هذا الأمر المفاجئ وإن كان تطورًا متوقعًا. إلا أنها وبالرغم من توقعها بأن أندريه سيكشف تمامًا نواياه ويعبر لها بوضوح عما بداخله قريبًا، لكنها لم تكن متأكدة أن هذا سوف يحدث الليلة، قبل ليلتين من الافتتاح.

«ألا تريدين أن أنتظر؟» قال لها برهافة، بينما كان يضع يده على كتفيها برفق بنية تمسيدهما.

«أندريه» قالت فقط اسمه ثم توقفت بشكل مسرحي كما لو أرادت أن تفكر جيدًا فيما ستقوله. ثم أخذت نفسًا عميقًا وقالت بطريقة تشوبها مسرحية المشهد الذي كانا يلعباه منذ قليل: «تعرف أنني لست وحيدة. وأنني سأتزوج قريبًا».

فهم أندريه، وفكر في نفسه، إنها لم تقل هذا باقتناع ولا بإقناع، لكن كحقيقة تمنعها من الاستجابة لدعوته وعروضه، بل قالت هذا لتؤكد على جدية وحتمية وضع لا يمكن تجاهله حتى وإن كانت تريده، وكان من الواضح أنها تريده.

كما أنه كان يعرف أن رفضًا تمامًا من جانبها، كلمة واضحة منها في هذه اللحظة كانت كافية لأن ترفضه تمامًا، كانت تكفي لأن ترسله إلى غرفته وتمحي الفكرة من رأسه للأبد. لكنها لم تفعل هذا.

«أعرف ولا أريد أن أقف بينك وبين من تحبين، أو بين عاشقين، لكن اسمحي لي أن أقول، لا أرى بينكما شيئًا كهذا».

هذه المرة تحدث أندريه برهافة تقترب للهشاشة والسخرية مما فاجأ فيكتوريا. ثقته وصراحة كلماته وتعبيره الدقيق ظهر تمامًا على وجهه مما ضايقها وأدهشها للحظات.

لم تحتمل نظرته القوية فخفضت عينيها، لكن هذه المرة لا لكي تفكر ماذا ستقول ولكن لتجد وسيلة تليق للتصرف في هذه الحالة.

«ألم تفكر في أنه ربما تكون مخطئًا؟» قالتها له أخيرًا بنبرة توبيخ بينما استمرت في النظر إليه في المرآة. وجهها الجميل ضربته الحمرة ورعشة لاإرادية دبت في شفتيها.

«لم يتصادف وأخطأت من قبل في أمور كهذه يا عزيزتي. أنا أرى جيدًا وأسمع جيدًا». خرجت هذه الكلمات من فمه بأسلوب كاشف ممتلئ بالتحدي.

اندهشت وتضايقت كثيرًا، لكن دهشتها هذه المرة لم يكن مصدرها وقاحة الرجل ولا أسلوبه الفج المباشر ولا حتى مما تخفيه الكلمات أكثر مما تكشفه، ولكن من حقيقة أنها شعرت بضعفها أمامه، ليس فقط لأنها لم تصده حتى الآن كم كانت تعد نفسها ولكن لأن سلوكه وموقفه في الحقيقة لم يترك لها أي مجال للاستمرار، بل وكشف له ضعفها أمامه!

تُرى، هل كان تظاهرها بأنها لا تهتم بأمر نيكولاس عندما كانت معه جزءًا من الدور الذي كانت تحب أن تؤديه، ولا سيما عندما

يكون الرجال حولها، الرجال الذين يكنون لها شغفًا ما؟

ثم فكرت في أن هذه اللحظة هي المناسبة لكي تصده بحسم، لتطرده من غرفتها وحياتها للأبد، لكن بدلًا من هذا ابتسمت. لم تصده ولم تدافع عن علاقتها كما يستلزم على امرأة مخلصة لحبيبها، تاركة أندريه يصدق أن ما كان يظنه صحيحًا وأن كل افتراضاتها كان لها أساس، وتساءلت ما الذي دفعها لتتصرف بهذه السلبية.

ويبدو أن موقفها هذا قد شجع أندريه أكثر.

اقترب منها هذه المرة وهو ينحني فوق رأسها ليشم عطر شعرها، ثم أخذ وجهها بين يديه ونظر إليها نظرة طويلة كما لو أنه يعطيها الفرصة الأخيرة كي تطرده أو توقفه أو حتى تصفعه، لكنها لم تتحرك.

انحنى أندريه أكثر حتى لمست أنفاسه الدافئة جبهتها المشتعلة من فرط الإثارة وقبلها برفق بين حاجبيها. ثم همس لها بإغراء بالقرب من أذنها مكررًا جملة من نص المسرحية، كانت فيكتوريا تقولها كثيرًا وبالأخص في المشهد قبل الأخير؛ عندما كانت تسلم نفسها بلا شروط لبطل المسرحية. «دعك من التظاهر واترك نفسك». همس بتلك الكلمات بطريقة كما لو أنه يعترف لها بوضوح أنه يعرف تمامًا نقاط ضعفها وأن هذه الجملة ترسمها وتعبر عنها تمامًا. ثم طبع قبلة رقيقة على وجنتها الساخنة كي

يثيرها ويتحداها أكثر.

اضطربت فيكتوريا مرة أخرى لكنها استطاعت أن تستجمع هدوءًا ولو ظاهريًّا. كان من الواضح أن له سطوة عليها، فهمت هذا من البداية، إنه كان يقرأها ككتاب مفتوح. وربما أدركت أن قدرته هذه بأنه يعرفها أكثر من الآخرين يجعلها تأتي في مواجهة مع نفسها وتزيد من رغبتها وشغفها تجاهه.

قبلها أندريه على وجنتها بالقرب من شفتيها تاركًا رطوبة ما في هذا الموضع. «أتساءل دومًا كيف يمكنك مقاومة رغباتك يا عزيزتي...». قال وهو يهمس لها بمغزى ولا يزال يمسك بوجهها بين كفيه.

وكما لو كانت كلماته تمثل صفعة لأنانيتها، حاولت فيكتوريا أن تبتعد. لكن أندريه لم يفعل، لم يكن من هؤلاء الرجال الذين يتراجعون بسهولة ولا سيما عندما تكون بين يديه امرأة جميلة على وشك أن تقع في براثنه مثل فيكتوريا.

أمسك بها بقوة وأصر أن يحدق بها كما لو كان يتفحص وجهها بدقة. كما لو كانت عيناه تخترقان عقلها وروحها.

وبينما كان لا يزال منحنيًا فوقها وضع شفتيه على شفتيها الحمراواين الساخنتين، وطبع عليها قبلة طويلة حارة.

لم تنسحب فيكتوريا، وبقيت عيناها متسمرتين في عينيه كما

لو كانت تبحث بداخلهما عما يبرر لهفتها ورغبتها الحسية التي بدأت تتضخم بداخلها وتكسر كل حواجز التردد.

شجعه قبولها والتعبير الذي ارتسم على وجه المرأة الجميلة، ومن حقيقة أنها لم تدفعه حتى الآن بقوة بعيدًا عنها فأخذ يديها بين يديه وساعدها للنهوض.

أطاعته كأنها منومة مغناطيسيًّا، وربما راحت تتساءل ماذا ستكون نهاية هذا المشهد، دون أي تدخل منها. نسيت تمامًا خطبتها.

«أندريه، لا أريد أن...».

لكن الرجل لم يستمع إليها، أحاط بذراعيه جسدها الساخن وهو يقول بنفس النبرة: «لقد مر وقت طويل وأنت تكبحين رغباتك يا فيكتوريا، أشعر بكِ، لكن أنا طيلة هذا الوقت أبحث عن الفرصة كي أقترب منكِ».

وكما لو كان حلمًا، شعرت بأصابع يده تلمسان كتفيها وتسير عليهما ثم تنتهي على فتحة فستانها الأمامية. شعرت بها تمر ببطء على صدرها المتعرق، كما لو أراد أن يجفف عرق الإثارة.

في عيني الرجل الشاب الخضراوين العميقتين اللتين تزدادان قتامة مع قرب المسافة، كان هناك شيء يعطل إرادتها ويمنع رفضها بل ويقوي رغبتها الجنسية تجاهه.

تركت فيكتوريا أنينًا صغيرًا من الرغبة يهرب منها، ولم تعد قادرة على تحمل الشعور المعذب الذي تركته مداعباته على جسدها، ولا يمكنها أن تتظاهر بأنها غير مبالية بعد الآن. في الواقع، شعرت وكأنها تستسلم له.

استمر أندريه في تقبيلها على وجنتيها وشفتيها ورقبتها وصدرها ونجح في أن يعريها تمامًا.

«كم أنتِ رائعة!» همس وهو يخفض نظرته على صدرها. «أنت أجمل أمرأة رأتها عيناي في حياتي» قال هذا بقوة حتى إن فيكتوريا خافت لربما يسمع صوته في الخارج.

بالرغم من أنها لم تعد ترى وجهه أو حركته أو أي تغير في ثقل بدنه، كان إيقاع أنفاسه وسرعة أنينه لا توحي أنه لن يتراجع عما يفعله.

«سوف يسمعوننا» أنذرته لمرة أخرى بلهاث متقطع، لكن الرجل لم يتوقف، كان ضائعًا في دوامة العشق غير مبالٍ لتوسلاتها الضعيفة.

لم تعد تحتمل، فلمساته كانت تخترق عقلها وجسدها وروحها. غاص قلبها في بطنها وراح يدق بقوة بلا انقطاع بينما يداها المتعرقتان تحاولان أن تمسكا بجسده.

«أحلم منذ وقت طويل بهذه اللحظة» همس لها وأنفاسه تداعب

وجهها مرة أخرى.

ظلت فيكتوريا مطيعة أسيرة للمساته ومداعباته جاهزة بروحها وجسدها للاستسلام له.

وبينما كان أندريه مستغرقًا تمامًا فيما يفعله، مغلقًا كل تأوهاتها المكبوتة بشفتيه قبل أن يستسلما تمامًا لشعلة الإثارة والعشق، أيقظهما صوت باهت أخذ يقوى شيئًا فشيئًا فأيقظهما من السكرة.

في البداية، طغى ضجيج تأوهاتهما الذي سد آذانهما على طرق باب غرفة الملابس، حيث تدفق الدم من رؤوسهما بزخم من نشوة اللحظة. استمر الطرق بإصرار، حتى أصبح واضحًا.

حاولت فيكتوريا التحدث لكن أشار لها أندريه بأن تصمت.

سمعا طرق باب الغرفة يدق مجددًا لمرة أخرى، ثم صوت أنطوان المخرج ينادي على فيكتوريا:

«فيكتوريا، هل أنتِ بالداخل؟».

كاد أن يغشى على فيكتوريا، كانت متأكدة أن أنطوان قد سمعهما.

بعد لحظات عندما سمعت خطواته تبتعد ثم صوت باب ينغلق، تنفست الصعداء. وعندما حل الصمت مرة أخرى في الخارج،

همس أندرية بارتياح: «أخيرًا».

لكن الشعلة قد انطفأت وحل محلها توتر كبير.

«أريد أن نلتقي الليلة في بيتي» قال لها بحسم لا يقبل الرفض. «سأكون مجنونًا إذا تركتك يا فيكتوريا» همس لها في أذنها وهو يلمس وجنتها برفق، «وأنتِ أيضًا».

لم تتكلم فيكتوريا إلا أنها أومأت بالإيجاب عدة مرات، بينما تحاول أن تلتقط أنفاسها وسيطرتها على نفسها.

أنطوان أوبيان

شيء ما قالوه بجواري
لفت انتباهي ناحية باب المقهى
ورأيت الجسد الجميل
و كأن إيروس -بخبرته الواسعة-
قد صنعه....

عندما اختفت المرأة الجميلة عند ناصية الشارع، تنهد محمد بك تنهيدة طويلة وعميقة ثم خلع طربوشه ووضعه على الطاولة الرخامية للمقهى. بعدها أشار لجرسون المقهى وطلب منه قهوة ثقيلة مضبوطة وكأسًا من الكونياك. كان أنطوان يجلس بجواره، المخرج الشهير الذي كان الجميع يتحدث عن مسرحياته الناجحة وصولاته وجولاته وعروضه المسرحية الرائعة على أكبر مسارح الإسكندرية.

كان أنطوان ذا جذور أرمينية ولقبه كان يعقوبيان، لكن الجميع كان يتعامل معه أنه فرنسي ولم يبذل هو أي مجهود في تصويبهم. كان يروق له هذا ولا سيما بسبب مهنته، كان يعتقد

أن باسم كهذا سيعزز وضعه في الوسط الفني. وهكذا لم يكن يتحدث عن جذوره الأرمينية على الرغم من فخره بهذا الأمر.

مساء يوم الإثنين، ولم يكن هناك أحد آخر في المقهى الكبير سوى ماركوس صاحب المقهى، الذي كان يقبع خلف البار يجفف بعض الأكواب واثنان من الجنود الإنجليز وحدهما في أحد الأركان يتحدثان بحيوية.

جلس الرجلان على طاولة في منتصف المقهى الذي كان يطل على الشارع في الميدان الكبير، وأبوابه الزجاجية مفتوحة عن آخرها في يوم ربيعي كهذا وراحا يتجاذبان أطراف الحديث.

«سأله الأول بالفرنسية، كيف حالك يا بك؟» أنطوان بحماس وحيوية دائمة يتمتع بها وهو يلتفت بنظره نحو الرجل.

«كيف حالك يا عزيزي أنطوان؟ ما أخبارك...».

اعتلت وجه الرجل الأربعيني ابتسامة مشرقة ورد بأسلوب مهذب: «كل شيء على ما يرام عزيزي الـ بك، كل شيء على ما يرام. ميرسي بوكو. ليس هناك داعٍ بالطبع أن أذكرك بموعد العرض المسرحي الجديد، سنكون بانتظارك. أتمنى أن تشرفنا بحضورك».

«سأرى يا عزيزي أنطوان، سأرى. عندما تهدأ الأمور قليلًا. ألا ترى ما يحدث؟».

تبع هذا صمت قصير بينما كان الرجل يرتشف ببطء قهوته ثم يدخن النرجيلة التي تركها الجرسون بجواره. غرغرة الماء في الإناء الزجاجي كان يهدهد مسامعه.

«معك حق يا بك، إن الأمور ليست في أفضل حال. كيف ترى التطورات؟» سأل أنطوان بينما راح يحتسي قهوته بدوره.

«ماذا أقول لك يا صديقي؟ ألا ترى أفعال الملك؟ أخشى أن يكون رد فعل الحزب الشعبي ألا يقف في صفه، على الأقل في الخفاء. حتى إن الإنجليز يتظاهرون بأنهم لا يرون شيئًا حتى لا يشغلوا بالهم. وكأنهم يتفاوضون من أجل امتيازات أكثر للشعب ولا يعرفون أنهم يحفرون تحت أقدامهم بأيديهم».

«ربما يريدون أن يكسبوا بعض الوقت يا سيدي. على أي حال، إن الوضع خطير منذ صار النحاس قائدًا لحزب الوفد الشعبي».

ألقى البيك نظرة غريبة نحو المخرج لكن الآخر تعجل في أن يفسر له: «إن المظاهرات والضربات ضد الأجانب ـوبالأخص ضد الإنجليز- لا يبدو أنها ستكف أبدًا. ولكي أكون صريحًا، كلنا نشعر بالقلق».

«أفهم هذا، أفهم يا أنطوان، ونحن أيضًا قلقون» اتفق البيك وهو يهز رأسه ببطء دون أن يعلق.

«كان القدر يغلي ولا سيما بعد تولي صدقي رئاسة الوزراء.

سببت حكومته الكثير من المشاكل وأثارت القلاقل، كما كانت تغذي الظلم ما أدى إلى انفجار العنف في البلاد. وصل الاستقطاب ذروته والشعب لن يسكت كثيرًا على هذا. سترى انفجار الشعب قريبًا وستزداد المظاهرات والقلاقل. هذا غير أن الوضع الاقتصادي ساء للغاية بالنسبة للطبقات البسيطة من الشعب...».

«أخشى أنك تبالغ يا أنطوان. لا أظن أن شيئًا من هذا سيحدث. إن هذا الشعب هادئ ووديع وينسى بسرعة».

«دعك من سعر القطن الذي انهار بشكل مدوٍّ. أنا لا أستبعد يومًا ما أن تتحد قوى الشعب وتهب ثورة عارمة مثل التي حدثت في 1923».

«حينها كانت الأمور مختلفة» قال الآخر معارضًا، ربما غاضبًا من تكهنات الأرميني.

«أتقصد إقالة سعد زغلول آنذاك وتعطيل الدستور؟».

«لا أريد أن أسمع اسمه يا أنطوان» قال البيك معارضًا ورفع كفيه لأعلى وضم حاجبيه وبدا على وجهه الاشمئزاز.

بعد صمت وجيز وفي محاولة ليلطف مزاج البيك، وحتى لا ينساق في الحديث فتتضح حقيقة تأييده الخفي للحزب الشعبي، قال أنطوان: «لكن لندع كل هذا جانبًا الآن».

«نعم. نعم، لندعنا من هذا يا أنطوان. لست في مزاج لحوارات سياسية. صارت لا تنتهي وترهقني كثيرًا في الفترة الأخيرة».

«معك حق يا عزيزي».

«ما أخبار الحي هناك؟».

«هدوء تام يا سيادة البيك».

«سمعت أن صديقكم مريض. يقولون إنه يعاني من مرض جنسي قاتل...».

«أي صديق؟».

«هذا الشاعر الغريب الذي يتردد، أو كان يتردد على مطعم Le passage ويكتب القصائد. قابلته هناك بالصدفة مرة أو مرتين».

«نعم، هو مريض بالفعل، لكن ليس مرضًا من هذا النوع. الرجل يعاني من السرطان. لندعه وشأنه». صحح له أنطوان المعلومة وبدا عليه الضيق.

«حقًّا، هل تعتقد أن مرضه هذا كان بمحض الصدفة؟».

«ماذا تعني يا بيك؟» سأله أنطوان باستغراب، ولو أنه يعرف الطبيعة المشككة التي تميل للاتهام للرجل الذي يجلس أمامه.

«أتساءل دومًا لو أنك تخفي شيئًا ما تحت هذا الوجه الهادئ والطبيعة الناعمة. لم أسمعه قط يتحدث في السياسة ولا مرة

واحدة، قابلته في منتدى مدام خرايكلياس». انحنى نحو الآخر وهو يخفض صوته، حتى لا يسمعه ماركوس الذي كان يجلس على مقربة ويلعب الطاولة مع أحد أصدقائه. «من قبل كنت قد رأيت مسيو ماركو هناك. وهو لم يتظاهر بأنه رجل عائلة صالح».

ضحك أنطوان، لكن لم يعلق على كلامه.

«وصديقه كيرياكوس؟».

«لا، لا» قال أنطوان ضاحكًا، «هو بالفعل رجل عائلة صالح. لم يكن يسمح لنفسه بالهراء ولا بمثل هذه التصرفات. فكان يحب زوجته ويحترم إكليل زواجه. لا، لن تقابله هناك أبدًا».

«أثينا! نعم، هي امرأة جميلة... ولديها بنات جميلات! أظن أن حفيدتها ستصيبهم بالجنون».

«أنت محق يا بيك، هي بالفعل جميلة...» اتفق الرجل وهو يخفض نظرته نحو النرجيلة.

«لكن على كل حال قليلون هم من يستطيعون مقاومة غواية وألاعيب المدام» أصر البيك وهو يضع خرطوم النرجيلة على الكرسي.

تظاهر أنطوان بأنه يتفق. «لا أحد!» أجاب وهو يومئ بالاتفاق والتأكيد.

بعد ذلك ضحك الرجل بعد أن تذكر شيئًا مضحكًا فجأة. «ربما فقط كل الآخرين الذين لديهم اهتمامات أخرى» أضاف وهو يغمز بعينه.

احمر وجه أنطوان قليلًا لكنه تظاهر بأنه فهم ما يقصده.

«وأنت يا أنطوان، ألا تنوي الزواج؟» سأله البيك بسخرية ليزيد من ارتباكه.

«الزواج ليس من أولوياتي. فني سيكون لي للأبد».

«فنك؟».

«بالطبع».

«لا يمكن أن تتزوج فنك. ماذا تقول يا رجل؟».

عندما فهم الرجل أن الآخر يستفزه طاوعه حتى يتخلص للأبد من مثل هذه الحوارات. «الزواج لا يخلصنا من نقاط ضعفنا وما نحبه يا صديقي».

ضحك البيك بشدة، كان يعرف أنه أصاب هدفه، هكذا فضل أن يتوقف عن مزاحه المستفز والتفت بنظره نحو الشارع. في تلك اللحظة رأى السينيورا فرانشيسكا تعبر الطريق نحو الرصيف. ربما كانت عائدة من عملها إلى البيت في شارع ليبسيوس. راح يراقبها من أسفل إلى أعلى بإعجاب واضح ثم رفع فنجانه ببطء

وبعد أن ارتشف رشفة التفت نحو محاوره قائلًا: «لندعنا من هذه الأمور إذًا يا أنطوان. ودعنا نتحدث عن شيء أكثر بهجة...» قال وهو يغير أسلوبه ومزاجه. «ما هي أخبار صاحبة المنزل إذًا؟».

تفاجأ أنطوان بالتغيير المفاجئ للحوار من قبل الرجل، ابتسم وسأله بمغزى: «من تقصد بالضبط يا سيدي البيك؟».

أومأ البيك نحو الاتجاه المقابل نحو الشارع.

«آه، نعم» قال أنطوان.

«حسنًا فهمت يا صديقي. فالنميمة دائمًا أحد أبرز اهتماماتي. هي نقطة ضعفي؟». أجاب البيك دون أن يتوقف عن النظر بإعجاب واضح إلى المرأة بينما هي تغيب عن ناظرهم. وعندما اختفت تمامًا، التفت نحو أنطوان مبتسمًا، وقال بصوت عالٍ كي يسمعه ماركوس الذي كان يجلس في الجوار وسأله: «حسنًا؟ هل تعتقد أن لدي فرصة مع الإيطالية؟».

ارتبك أنطوان ولم يعرف كيف يجيب الرجل. وإن كان يصيبه بالاشمئزاز، كان يعرف جيدًا أن له تأثيرًا كبيرًا بينما في الماضي ساعده في بعض أعمال الدعاية لأعماله المسرحية، وهكذا فضل أن يقول له متظاهرًا المزاح: «أنت تعلم جيدًا أن الإيطالية لا تختلط بالبكوات، هي تصوب دائمًا نحو أهداف أعلى».

«هل تعني أنني لن أجرؤ على تحدي الباشا المعجب بها؟ إلا إذا

كانت الحلوة تهدف لما هو أعلى من باشا».

ازداد ارتباك أنطوان، لم يكن يتخيل أبدًا أن الرجل يتحدث بينما أدرك أنه يعرف الكثير عن المرأة. لكنه تذكر أن هذا هو عمله بالضبط، أن يلاحظ كل شيء ويدونه.

«ماذا تعني سيدي البيك، البلاط الملاكي؟». تظاهر أنطوان بالضحك.

«ولم لا؟ فلديها كل المقومات، إذا استثنينا ابنتها المريضة».

«ابنتها لا يمكن أن تكون عائقًا يا صديقي».

«ماذا تعني؟».

«إن ابنتها المسكينة لم تعد موجودة».

«ماذا تعني؟».

«المسكينة لم تعد موجودة».

«ماذا تعني؟» كرر سؤاله بدهشة أكبر مما سبق.

«ماتت».

«ماتت؟».

«ماذا أصابها؟».

«مرض السل».

«أهذا مؤكد؟».

شكل الرجل أثار غضبه، لكنه اكتفى بإيماءة تأكيد.

«وعشيقها اللعوب؟».

«أي عشيق؟» سأله أنطوان مندهشًا.

«هذا الإيطالي الوسيم الذي كان يظهر في بيتها وفي الحي من آن لآخر».

«آه، هذا. لم يكن عشيقها يا صديقي» شرح له أنطوان بتعبير قرف يرتسم على وجهه. «لقد كان قريبًا من بعيد، أو على الأقل هكذا كانت تزعم السيدة للزائرين ولابنتها المسكينة كي تتركه يبقى في المنزل. عاد إلى بلده قبل فترة وسمعت أنه ربما صار عضوًا في حزب موسوليني». توقف أنطوان ليرتشف قهوته التي كادت تبرد.

«على أي حال، أمام المال الكثير من العشاق والأزواج يتظاهرون بالعمى» قال وهو يضحك ضحكة طويلة ثم أكمل بأسلوب يشبه المراهقين «على أي حال لو كنت تظن أنك يمكن أن تكون وسيطًا حتى أزورها يومًا ما عندما تكون لحالها...».

«أنا؟ كيف؟».

«كونك جارها أعني. ألا تسكن في غرفة تستأجرها منها؟».

«نعم، بشكل مؤقت، لكن كيف تقول هذا... أعني في أمور كهذه...».

«أي أمور يا أنطوان؟» قاطعه فجأة. «أتعني أنك لا تفعل هذه الأشياء، وأنت رجل مشكوك في سلوكه؟» نظر إليه بمغزى فطأطأ الآخر رأسه لأنه فهم ما يقصده. لم تكن المرة الأولى التي يصوب البيك سهامه نحوه لكن أنطوان كان في حاجة له لأنه كان أحد أهم مموليه، حتى وإن كان لا يشاهد المسرحيات.

«بكل سرور يا عزيزي. سأتوسط بكل سرور. واليوم أنا على استعداد أن أقوم بهذا، لو لم يكن لدي بروفات في المسرح، لكن قريبًا جدًّا، أعدك، لكن يكفي...».

«يكفي ماذا؟» سأله محمود بك بتريب وهو يرفع حاجبه الأيسر.

«أن يسير ذلك الموضوع، يا سيدي البيك. أتمنى أن تذكره».

نظر إليه محمود وهو يعقد حاجبيه بتعبير منزعج. «ذكرني يا أنطوان...».

تردد أنطوان فقط للحظة. ثم أخفض صوته وقال: «ذلك التبرع...».

«أي تبرع؟».

«للصديق الشاب الذي حدثتك عنه قبل فترة» تلعثم ثم أكمل: «لقد وعدتني أن تتوسط حتى توظفه في وزارة المواصلات يا مون بك. هل تذكرت الآن؟».

راح محمود بك ينظر إليه، بينما ما زال يتصارع مع المشاعر السلبية التي ملأته فجأة، بالرغم من هذا حاول أن يخفي الاشمئزاز الذي يشعر به وقال: «طبعًا طبعًا» قال متظاهرًا بأنه مستعد للمساعدة. «اعتبر أن الأمر تم يا صديقي».

الشاب رفيق أنطوان عُيّن في الوزارة ولم تتأخر الأخبار والإشاعات حول السينيورا فرانشيسكا.

تركت السيدة المنزل في الحي القديم وانتقلت إلى سوتير في شقة أرستقراطية كبيرة تطل على البحر وتركت خلفها الماضي والذكريات الحزينة للأبد. انتشرت الشائعات حول أنها تزوجت محمود بك في الخفاء حتى لا تكشف زوجته وأولاده أمرهما، وأنه قد اشترى لها هذه الشقة كهدية زواج.

لكن الرجل قد أصابه الهوس بزوجته الإيطالية فكان يشي بنفسه قبل أن يفضحه الآخرون.

ماركوس أسلانوغلو

في أعماق المقهى الصاخبة،
يجلس وحيدًا رجل عجوز،
منحني الرأس على المنضدة،
وأمامه جريدة.

الزقاق الضيق في الحي الفقير كان بالفعل فارغًا، وبدا مهجورًا بالرغم من أنه في ساعات أخرى كان يعج بالحركة وصياح الأطفال وأصوات الباعة الجائلين والسقائين الذين يحملون الماء للبيوت. المحال الصغيرة أغلقت أبوابها للإفطار، أول وجبة في شهر رمضان عند غروب الشمس، فكان المقهى الشعبي عند الناصية خاويًا إلا من بعض الزبائن الذين فرشوا الجرائد على الطاولات وراحوا يأكلون الفلافل والفول والطرشي.

روائح الأطعمة الشهية التي كانت تفوح من نوافذ البيوت القديمة ملأت هواء الزقاق، وكانت تشهد على الحياة بداخلها قبل مدفع الإفطار.

بعد المقهى المضيء بقليل كان هناك حي أوروبي، الحي الأوروبي كما كان أهل الجالية يطلقون عليه حيث كان يجلس الصديقان، كانت الصورة مختلفة تمامًا.

كان المكان مضيئًا وناصع النظافة وتفوح منه روائح القهوة المطحونة الطازجة. جلس الرجلان على طاولة على زواية في منتصف المقهى كي يلعبا الطاولة مثلما اعتادا أن يفعلا في أيام الآحاد قبل أن يعودا إلى منازلهم، حتى يلتقيا مرة أخرى في منتصف اليوم بعد الغداء والراحة.

على الطاولة المجاورة كان يجلس جيران معروفون من الحي اليوناني والشاعر التجاري في المنشية وآخرين من أحياء أخرى يتبادلون الحديث حول السياسة والاقتصاد والبورصة، بينما بين الحين والآخر كان يتذكر أحدهم مزحة مرحة سمعها في سوق الكانتو الشعبي فيشاركها مع رواد المقهى.

«ما الأخبار يا كيرياكو؟ كيف حال العائلة؟» سأل ماركوس، صاحب المقهى الذي كلما جاء صديق حميم كان يترك موضعه خلف البار أو الكاشير ويجلس معه كما لو كان أحد رواد المقهى.

«أنا بخير، نشكر الرب يا صديقي» أجاب كيرياكوس بأدب.

«وكيف حال البنات؟» سأله. فتح لعبة الطاولة على المنضدة الرخامية المستديرة وراح يرتب الماركات.

«نعم، كلهم بخير» أجاب كيرياكوس فور أن هدأت قهقهات الطاولات المجاورة فحل هدوء نسبي لوقت وجيز في المقهى. «ابنته كاليوبي غادرت للدراسة وبعد قليل سيتبعها الصغير. هذا العام ينتهي من المرحلة الإعدادية».

«وماذا عن إيليني؟».

«على ما يرام. الرضيع يكبر وقد ملأ علينا حياتنا بالبهجة والابتسامات».

«بمساعدة الرب ستلد إيليني طفلها الثاني».

«أتمنى يا صديقي. فلقد عانى هؤلاء الأولاد كثيرًا كي ينجبوا...».

«لا تفكر بالأمر يا كيرياكو. لقد مرت تلك المحن. وزوج ابنتك ثوماس هو رجل طيب. يستحق الأفضل دومًا».

«شكرًا لك، حقًّا إن ثوماس رجل شريف ورب أسرة جيد . لقد صبر كثيرًا على مشاكل ابنتي النفسية واضطراباتها. لقد طلبت منه الطلاق مرات عديدة لكنه لم يستجب لها، ظل صامدًا كالصخر!».

«آخ، لقد كبر الأولاد يا كيرياكوس، لم يعد لديهم حاجة لنا. نحن من لدينا حاجة لهم». صمت ماركوس لبرهة وهو يتفحص وجه كيرياكوس كما لو كان يراه لأول مرة ثم سأله: «صحيح، هل لديك

أي أخبار عن تلك المرأة الجميلة؟ يالها من امرأة مغرية! جنية حقيقية. تُرى، لماذا توقفت عن الحضور إلى محلك؟».

احمر وجه كيرياكوس، لكنه لم يشأ أن يغذي تعليقات صديقه. كان يحبه ويثق به، وعليه فلم يستطع أن يكشف له السر الخطير.

«من تعني؟» سأله وكأنه لا يعرف شيئًا.

«تعرف من أعني! خاريكليا، لقد اعتادت لفترة أن تشتري من محلك».

لا، كان واثقًا أنه لا يريد أن يتورط في حوار خطير كهذا.

«لا أدري، كيف لي أن أعرف؟».

«ربما لم يعد لديك حاجة لمجيئها يا كيرياكوس؟ أعني ربما أصابت هدفها و...».

«لا تكمل» أوقفه «لو أنك تعني ما فهم فأنا أؤكد لك أنني تركت كل هذا خلفي. فكما ترى لم يعد سني يسمح لي بهذا».

رفع الآخر كتفيه وعبر بوجهه موحيًا بتخليه عن الأمر وراح يرص قطع الطاولة.

وبينما كان يهم ليلقي بالنرد، تحدث كيرياكوس فجأة وكأنه تذكر أمرًا ما، شيء كان ينتوي أن يسأل عنه منذ فترة. الآن أكثر

من أي وقت مضى حيث كان يشعر أنها كانت اللحظة المناسبة كي يوجه اهتمام صديقه ماركوس نحو موضوع آخر. أراد أن يجرفه نحو موضوع أكثر حزنًا وكان بالتأكيد أقل خطورة. «حقيقة، كيف حال جارك؟ لقد رأيته فيما قبل يجلس صامتًا في بلكونته. لم يرد علي التحية، ربما لم يرني، وربما لم يكن لديه مزاج للكلام».

«من تقصد؟ فيليبوس؟».

«لا، الآخر، الشاعر، في شارع ليبسيوس. لم ينتبه إلي. بدا كأنه هائم في أفكاره وبصراحة صعب علي حاله، بدا لي كأنه متعب للغاية».

ضحك ماركوس بصوت عالٍ. فهم أن تطرق صديقه للحديث عن الشاعر كان عن قصد حتى يلهيه ويشتته عن الحوار السابق. «أنت تتهرب يا مكار من الحديث وتغير الموضوع. منذ متى وأنت تهتم بصحته... هل تخاف أن يفتضح أمرك؟».

ضحك كيرياكوس ضحكة باهتة. «لا طبعًا، لكن أسأل عن إنسان جار لنا في الحي بدا لي في حالة مقلقة بالفعل».

«منذ متى والجميع يهتم لأمره؟» تساءل ماركوس متفاجئًا. «لم يكن يهتم أحد لأمره إلا مؤخرًا، كان له أعداء أكثر من أي أحد. على أي حال، نعم، لديك حق، هو يبدو في حالة يرثى لها المسكين».

«خسارة! فهو رجل عظيم فعلًا».

«وحتى العظماء لا ينجون من لعنة الموت يا صديقي. هذا هو قدر الإنسان. لقد أحسنت فعلًا بألا أتعلم. على الأقل سأغادر هذا العالم دون أن ينتبه أحد لأمري في هذا العالم المزري».

«لا تتحدث هكذا يا ماركوس».

«ولا حتى الأطباء ولا العلم ولا التعلم قادرون على منحنا الخلود. قبل أيام مررت بالصدفة من على عيادة زوج ابنتك ورأيته يخرج من هناك. كدت ألا أعرفه. سمعت أن العلاج في أثينا لم يكن ناجحًا».

«حقًّا؟».

«نعم، لم ينجح» كرر الآخر شاردًا إذ إن اهتمامه تشتت في اتجاه آخر.

«خسارة» تمتم كيرياكوس.

«نعم، لديك حق، خسارة كبيرة، لكن هذا ما حدث. هيا ركز الآن في اللعبة».

«نعم، نعم، اللعبة».

«نعود لموضوعنا».

«نعم، نعم، نعود لما كنا فيه».

«هيا لا تضيع الوقت وألق بالنرد أولًا». نفد صبر ماركوس فقد كانت النميمة تجري في دمه، فبعد أن تردد للحظة قال أخيرًا: «يا كيرياكوس، رأيت قبل قليل السيدة فرانشيسكا، جارتك القديمة، رأيتها تعبر خارج المقهى وتذكرتك».

اندهش كيرياكوس بالخبر غير المتوقع، لكنه فهم سريعًا أن السؤال كان يحتوي على كمين من صديقه.

«تذكرتني، لماذا؟».

«هل تذكر تلك زبونتك الأخرى...».

«أي أخرى؟».

«خاريكليا يا كيرياكوس؟».

حاول ماركوس بكل وسيلة أن يعود بالحوار إلى الموضوعات الشيقة حسب رأيه. وكان أسلوبه غاية في السذاجة مما كان يصيب الآخر بالضحك. «ماذا تريد يا ماركوس؟ قل لي ماذا بك كي ننتهي من هذا الأمر تمامًا».

شعر ماركوس أنه أصاب هدفه فنظر يمينًا ويسارًا ثم انحنى على الطاولة وهمس بسرية إلى كيرياكوس: «يجب أن أكشف لك أمرًا ما يا صديقي».

«وما هو؟».

«سر خطير. احتفظت به لفترة لكن لم أعد أستطيع أن أحمله بداخلي. لهذا قررت أن أسر لك به».

لم يجبه كيرياكوس، فقط راح يتفحص تعبيرات وجهه المضحكة وهو ينظر إليه، لكنه قرر في النهاية أن يسمعه. تُرى، ماذا لديه؟ «حسنًا، أسمعك».

«كنت أنا أيضًا أتردد على المنتدى!».

لم يتفاجأ كيرياكوس، كان يعرف أن صديقة قد تورط في علاقة مع إحدى الفتيات العاملات في ذلك المنزل، لكنه لم يقل له شيئًا خشية أن تنقلب عليه المعلومة وتكشف سره.

«لم أكن أنتظر من رجل رب أسرة مثلك أن تنحدر به الحال في مغامرات تافهة كهذه» قال هذا بين الجد والهزل.

«تافهة! لا، ليست تافهة يا كيرياكوس» وقد أدرك أنه رفع صوته من فرط غضبه وعصبيته فهدأ من روعه وخفض صوته وأكمل: «أعتقد أنه من أكثر منبهات الحياة. حتى اليوم وفي حالتي هذه... تعرف... بين الحين والآخر أمر على بيتها فقط كي أرى وجهها يبتسم لي. هذا الأمر يمنحني الحياة».

طريقة الرجل الثري بشاربه المبروم الذي يهتز راقصًا مع كل

كلمة وهو غارق في وصف الحب والغزل لم ينجح سوى أن يثير الضحك لدى كيرياكوس، «يا ماركو، ألا تخجل يا رجل؟» وبخه مازحًا لمرة أخرى.

«لماذا؟ أنا لا أقترف أي خطأ. أنا أداوي روحي. في عمري هذا نحن في حاجة لذلك. ثم إنني لا أسبب ضررًا لأي أحد يا أخي!».

«وزوجتك؟».

«لم تعلم شيئًا» أومأ ماركوس مرتين وجحظت عيناه الداكنتان المستديرتان. «كنت حذرًا دائمًا، ثم إنها مشغولة بشكل لا تتخيله...» الآن نظر لكيرياكوس بمغزى وأخذ يحرك حاجبيه. ثم ختم كلامه قائلًا: «السعادة معدية يا صديقي، تذكر هذا دائمًا».

هز كيرياكوس رأسه ببطء دون أن يعلق على ما قاله ولو كان يعرف بداخله أن لديه حقًّا، رغم ذلك لم ينطق بكلمة حتى لا يعطي استمرارية للحوار في هذا الأمر. ثم إنه كان لا يعرف في الحقيقة ماذا عليه أن يقول. كما أنه كان يخشى لو قال أي شيء ربما يفضح حاله وهو لا يستطيع أن يخاطر بهذا. في الحقيقة كان يغار من شجاعة صديقه الذي يتحدث بحرية. «هيا يا صديقي» قاطعه. «استمر في اللعب ودعك من الهراء».

«السعادة لا تضر أحدًا يا كيرياكوس. هل تريد أن أوقع لك على هذا؟ روح عن نفسك يا أخي وانفض عنك مخاوفك واستمتع

بحياتك التي تتمدد أمامك برحابة. سترى كم تعجبك. وكما قلت لك فإن خاريكليا لم يعد لديها متطلبات. لقد كبرت وإن كانت لا تزال تحتفظ بسحرها القديم».

«لا، لا، لن أجرح أثينا أبدًا. وبالأخص الآن بعد أن هدأت الأمور مع إيليني. لا أريد أن أحمّلها أعباء أخرى. ولأي سبب أفعل هذا؟».

هنا ابتسم ماركوس وخفض صوته وغمز بعينه. «البهجة والسعادة تتفشى كالفيروس يا كيرياكوس...» كرر نظريته هذه المرة وهو يغني مبتهجًا ثم ضحك بصوت مدوٍّ. «يجدر بك أن تمسك الحياة من قرنيها يا صديقي طالما تستطيع. بعد ذلك سيكون الوقت متأخرًا. ألا ترى؟ فالحياة هي بستان جميل مليء بالمغامرات الملونة العطرة المبهجة. لو لم تقطف منها زهره على الأقل، ماذا ستتذكر في شيخوختك؟».

مزاج الرجل الفلسفي الهادئ وابتسامته المستفزة مع تعبير وجهه المضحك إذ انتفخ خداه مثل أكياس صغيرة مع كل محاولة لإقناعه سببوا الضحك لكيرياكوس.

لم يكشف له عن سره، على الرغم من أن ماركوس هو صديقه الوحيد ربما في السنوات الكثيرة الأخيرة. كما لم يكشف له أبدًا علاقته بماريا. وهكذا راعى أن يعيد الحوار حول جارهم المسكين التعس وحالته الصحية التي يرثى لها.

سنوات شبابي ومسيرة عشقي -

بأي وضوح أرى معناها الآن.

شعر وهو يسير على أنقاض المسرح اليوناني، بنفسه في حلقه حارقًا خلف رقبته يدغدغه بشكل يثير عصبيته. التفت بشكل مفاجئ لكنه لم ير أحدًا لكنه كان يعرف أنه يقف على مقربة منه.

استمر في طريقه متظاهرًا باللامبالاة وعدم الاكتراث، على أمل أن يخدعه فيظهر مرة أخرى بينما كان يتحسس المطواة الحادة التي جلبها من القاهرة في جيبه.

أسرع من خطوته ليستفزه مجددًا ليظهر، أم فعل هذا ليهرب منه؟ طبيعة المكان الميتافيزيقية بسبب الفراغ والهدوء السائدين فيه. نسي للحظة ذلك الحضور الغريب كما لو أنه تاه فجأة من الوجود.

بعد قليل شعر به يتابعه من جديد محاولًا أن يختبر قوة احتماله.

في الحقيقة لم يهرب من جواره أبدًا، كان يتبعه بإخلاص أينما ذهب، وفي كل مرة كان يلتفت فجأة برأسه كي يضبطه متلبسًا كان ينزلق بعيدًا ويهرب ويختفي.

فكر أنه يحلم، لكنه كان واثقًا في أنه هذه المرة يعيش شيئًا جديدًا تمامًا من خارج العالم لم يعشه من قبل، وهو الأمر الذي كان يثير التردد والبلبلة وهو شعور لا يشبه غيره على الإطلاق.

فجأة سرت في بدنه بروده غريبة لم تكن من نسيم البحر قبل الشروق.

كان يعرف أنها لحظة الحساب.

راح قلبه يدق بقوة حتى إنه كان يسمع صدى ضرباته في رأسه. لم يكن خوفًا، كان توقعًا وإثارة ونشوة جنسية تقريبًا. بحركات بسيطة وضع يده في جيبه. وبحركة صامتة للغاية إلا أنها ملأته بسعادة غريبة. بعد قليل جدًّا سينتهي كل شيء.

للأبد! المهانة والألم وانهيار الجسد والروح وعذاب انتظار النهاية الوشيكة، كل هذا سينتهي. كان يعرف أنه لا يطيق الانتظار، كما كان يعرف أن الحضور الغريب غير المرئي كان يتحداه كي يسرع من نهاية هذا الوضع المريض. وإلا سيبقيان مرتبطين في علاقة مرضية مع ضحيته. نعم، كان يجب أن يتحرر للأبد من قيود تلك الحالة المرضية.

شعر مجددًا بأنفاسه في حلقه.

هذه المرة متقطعة كاللهاث. شعر بها بقوة بالقرب من أذنيه حتى اقشعر بدنه. «عجل وخلصني» صاح به. «خلصني» كرر بإصرار مرات عديدة وكل مرة بشكل أقوى وأكثر توسلًا، كان نداء وتوسلًا وإيقاظًا كاد يرفعه إلى بعد آخر غير مسبوق من الواقع.

وصل الأدرينالين لأعلى مستوى، لم يعد عقله يفكر في شيء آخر. لم يكن هناك شيء على الأرض سوى ذلك الحضور الذي يتبعه في كل مكان دون أن يستطيع أن يراه أبدًا، فقط يشعر به. وصلت نشوته ذروتها ودفعت يده بكل ما بها من قوة ووجه المطواة نحوها.

كان الأنين صاعقًا ومهيبًا له قعقعة رطبة مثل الشخير. نعم هذه هي سكرة الموت. مثل فحيح ثعبان متقطع ثم ذاب للحظة، قبل أن يستمتع بهذا المنظر الرباني. تجمد كل شيء حوله بينما كان يبحث عن بدنه. لو رآه يرتعش سيهدأ للأبد. شعر بحركاته بطيئة، بطيئة لدرجة تشبه حراك الهواء، لكن جسده قد اختفى تاركًا قميصه خاويًا من جسده. صاح: «لا تذهب! لو لم أر هذا الجسد اللعين يحتضر أمامي، ماذا سيكون سبب قيامي بفعل كهذا؟» سمع نفسه تصرخ.

صاح ثانيةً حتى وصلت أصداء الصوت عنان سماء اليوم الجديد

الذي أشرق لتوه...

استيقظ وقد بلل عرقه وسادته وشعر برأسه باردًا. كان لا يزال يلهث عندما بدأ في إدراك الواقع وبدأ يعود من الكابوس شيئًا فشيئًا، بينما ذلك الألم اللعين الآن صار أكثر حدة وقوة يسري ويثقب حلقه بلا هوادة حتى أذنيه.

كيف كان ممكنًا مواجهة الموت ولا سيما الآن بعد أن حرم من الأمل؟

***

عندما وصل نيكولاس فافياذيس إلى منزله كان يعتزم أن يتحدث إليه. أن يفتح له قلبه ويفصح له عن غضبه وألمه وعن خيانة المرأة التي وثق بها وأحبها مثلما لم يحب أي امرأة أخرى في حياته. إحباطه الشديد من خداعها وكذبها جعله بالطبع يفسخ خطبته معها. كيف كان أحمق وساذجًا وضعيفًا أمام سحر فتنتها.

لكن وضع قسطنطين أرعبه حرفيًا. تغيرت ملامح وجهه من الأرق والإرهاق حتى كاد ألا يعرفه عندما اصطحبه الخادم إلى غرفته. كان وضع الرجل مؤلمًا للغاية مما جعله يطرد فكرة أن يحكي له أي شيء يتعلق بمشاكله الشخصية.

ماذا كان يتوقع في الحقيقة أن يسمع رجلًا في حالته على

حافة الموت ويسير نحوها بإيقاع سريع؟ نعم، كان واضحًا أن قسطنطين ليس في وضع ليستمع إليه، وكيف يمكنه أن يضيع ما تبقى له من قوى في الحديث عن مغامراته مع فيكتوريا التي لم يكن يُكن لها أي احترام.

ألم يكن هو من كان يحذره مرارًا وتكرارًا؟ ألم ينبهه من أن طبيعة تلك المرأة متمردة والعلاقة معها غير مجدية، ومن نرجسيتها التي كانت تسبب له الاشمئزاز والقرف ولم يتردد لحظة أن يعبر عن هذا كلما سنحت له الفرصة.

وهكذا فضل نيكولاس ألا يفتح الموضوع الذي كان يفكر فيه في الطريق إلى بيت قسطنطين، بل وكان يعتزم أن يحكي له.

مرت بضعة أسابيع على عودة الشاعر إلى الإسكندرية، لكن بالرغم من الحنين الذين شعر به بعيدًا عن مدينته في عدة مستشفيات في أثينا، كان وضعه الصحي قد ساء بشكل واضح في العامين الأخيرين.

حتى إنه فقد الكثير من وزنه وتغيرت ملامح وجهه، بينما زادت الهالات السوداء حول عينيه وغارت التجاعيد حول حاجبيه، فكانت تبدو هيئته في شيخوخة تامة، كان رجلًا عجوزًا. لم يعد قسطنطين يشبه ذاته القديمة في أي شيء، لم يتبق ولا أثر واحد من حيويته القديمة. حتى نظرته قد تغيرت، ولون عينيه، بينما انكمش جسده من فرط التعب والعقاقير التي كان يتعاطها، وهو

الأمر الذي جعل المشي يصعب عليه دون عكاز أو مساعدة. في واقع الأمر، قسطنطين أضحى ظلًّا لنفسه.

بالرغم من هذا، كان يحاول جاهدًا بكل ما تبقى له من قوة أن يكون مهذبًا ومضيافًا، وعندما رأى ارتباك صديقه لجأ لمحاولة إلقاء مزحة أو اثنتين جاء بهما من اليونان كما لم ينس أن يكرر مزحته أو قوله المأثور، عندما سمع فجأة بصوت قوي ضحكات من أحد بيوت البغاء. «أين يمكننا أن نعيش بشكل أفضل يا صديقي؟ حولنا بيت بغاء يداوي احتياجات البدن. وعلى مقربة كنيسة، حيث تغفر لنا كل ذنوبنا» ثم أكد على المكان الثالث لقوله المأثور اللطيف «وبعدها بقليل مستشفى، حيث سنموت».

ضحك نيكولاس، أو تظاهر بأنه يضحك، لكنه لم يعلق على مزحته. كان يكررها كثيرًا. لكن هذه المرة كان صداها مختلفًا.

بعد ذلك وبصعوبة بالغة استطاع أن يتبادل معه حوارات قصيرة، تركه نيكولاس ليستريح. في الواقع هو لم يحتمل المنظر الذي يراه، لم يحتمل أن يرى صديقه في هذه الحالة الصحية والنفسية البائسة، وبالرغم من أنه كان منهارًا تمامًا، حاول أن يبدو قويًّا ولم يغب عنه حس السخرية والفكاهة الذي يتميز به.

أما قسطنطين، عندما غادر صديقه، زحف إلى الفراش واستلقى آملًا في نوم عميق شافٍ، إلا أنه أدرك أنه لن يرى صديقه مرة أخرى. شعر أن النهاية قد اقتربت جدًّا وأن الموت يقرع بابه

بالفعل.

وإن كان لا يعتقد في الآخرة والحساب، كان يعلم بأن هناك اتزانًا في الكون وأن كل شيء له نهاية.

وكثيرًا ما تساءل عما إذا كان يعيش حياة غير مجدية، إذا أهدرها ظلمًا بأهوائه وطبيعته. لكن أليس هكذا تُهدر حياة الناس دائمًا؟ بلا جدوى ولا عدل؟

فماذا عليه أن يفعل حتى لا يضيع حياته سُدَى؟ استمتع؟ استمتع بكل ما أوتيت من طاقة، بقدر ما تسمح به الظروف وبيئة صارمة وقاسية. كان يستمتع حتى بإثارة غضب الناس والشياطين عليه وكراهيتهم، ولا تزال كراهية العديد من رفاقه المواطنين قائمة. أن يعشق؟ لقد عشق وعُشِقَ بشغف حتى تضاعفت الأخطاء لدرجة لا تقدر. أن يؤمن بإخوانه من بني البشر؟ لقد حاول دائمًا ألا يضيع جانبه الإنساني، لكن الناس دائمًا ما خانوه، والأشخاص المقربون منه أكثر. بعد كل هذا، ألا يحدث هذا منذ بداية الحياة؟ أم ربما سينجح في خلق شيء خالد، مثل «إسكندرية» صديقه؟

لكنه حقق الكثير حتى ولو أن الكثيرين حاربوه واستعدوه بلا وجه حق.

ما هو يا تُرى جوهر الحياة؟

لكن، حتى الآن، وهو يملك كل حكمة الحياة في كف يده، هكذا يلمس الموت بأطراف أصابعه، لم يستطع أن يخمن ولم يستطع أن يتخيل ولو بقدر قليل. ربما الهدف هو الوجود فقط، ولا شيء آخر.

كان واثقًا من شيء واحد: هو أننا لا يمكن أن نهرب من أنفسنا ولا طبيعة ذواتنا. في كل ما نفعله، مهما حاولنا، هناك قوة أخرى خارج ذواتنا تسيطر وتسخر منا.

لقد أصابه التعب من فرط التفكير، تحولت الابتسامة وارتسم الألم مكانها وغاص في بكاء طويل وسريعًا ما غلبه النوم.

الخاتمة

بعد أيام قليلة من وفاة الشاعر، الذي لم يفاجئ أحدًا إلا أنه ختم على نهاية عصر مهيب، عصر ازدهار وانهيار فترة اليونانيين في مصر في فترة ما بين الحربين، فترة من عالم الحكايات الخيالية في مظهره لكنه مظلم ومرتبك في أعماقه. إذ إن خلف الواجهات المضيئة للحياة الكوزموبوليتانية لمدينة الإسكندرية، لم يكف مجتمعها أبدًا عن الشعور بعدم الثبات، وكان يحمل الضعف الإنساني ومعارفه وشغفه وخوفه من الفناء والتفاهة وكل ما يميز البشر على الأرض الذين لا يعرفون فوارق الحدود ولا الجنسيات ولا اللغة ولا العصور.

حضر الجميع جنازته. الجيران والمواطنون الأكثر وفاءً لالتزاماتهم تجاه مجتمعهم. وحضره أعضاء بارزون من الجالية السكندرية، وكذلك من جاليات مناطق حضرية أخرى، ولا سيما العاصمة. أولئك الذين أحبوا السكندري وأعجبوا به، حقيقة أنهم قليلون، ولكن أيضًا أولئك الذين كرهوه وحاربوه بلا هوادة. وعلى الرغم من أن نبأ وفاته لم يكن مفاجأة لأي منهم، حيث كان الجميع يعرف ويتوقع نهايته من ساعة إلى أخرى، بعد عودته من اليونان، حزن الكثيرون على وفاته وهم يستعرضون في الواقع

موقفهم تجاهه. كان من بينهم الدكتور باباستيفانوس، الذي كان معجبًا بشجاعته، ولكن أيضًا بعزة نفسه التي كان يتعامل بها مع وضعه الصحي، «رغم أن ذلك حدث متأخر جدًّا»، كما اعتاد نيكولاس فافياديس أن يقول مرارًا وتكرارًا لعدد قليل من المدافعين وأصدقاء السكندري العظيم.

لكن في جنازته، بدلًا من الصلاة، ردد الجميع آيات من قصيدته الرمزية والمحبوبة، فقد كانت أنسب وداع لرجل ارتبط اسمه وعمله ارتباطًا وثيقًا بهذه المدينة الساحرة.

عندما تسمع في منتصف الليل فجأة

فرقة موسيقية تمر في الطريق غير مرئية

بموسيقاها الصاخبة وصياحها الذي يصم الآذان،

كف عن ندب حظك الذي ضاع،

وخطط حياتك التي أخفقت فيها،

وآمالك التي أحبطت.

دع عنك التوسلات غير المجدية.

وكمن هو على أهبة الاستعداد من قديم،

كشجاع جريء، ودعها:

ودع الإسكندرية التي ترحل.

ثم انطلقوا جميعهم في طريقهم كلٌّ نحو حياته، بأسرارهم صغيرة كانت أو كبيرة، معتقدين أنهم يحرسونها كأعينهم تاركين إياها للزمن، القاضي الأبدي الأكثر صرامة الذي سيقرر من سيُمحى من الذاكرة ومن سيُخلَّد في تاريخ هذه المدينة التي كانت تتغير ببطء شديد في غياب سكانها.

تمت

تستحضر الرواية حياة اليونانيين في مصر بين الحربين العالميتين

قسطنطين كفافيس في أيامه الأخيرة. الشاعر الشهير وصورة حياته العائلية الخادعة. صديقه المحامي التعس. الجارة المثيرة التي حركت المياه الراكدة في مجتمع الجالية اليونانية المتحفظ. الممثلة المتمردة بأهوائها وحياتها المسرحية. الفاتنة الإيطالية التي تعيش تعاستها الخاصة رغم نظرات الإعجاب المحيطة بها. كل هذه الشخصيات وغيرها تتواصل مع الشخصيات الهامة لذلك العصر (تسيركاس، فورستر وأونجاريتي).

أصواتهم في شارع ليبسيوس بالإسكندرية في الفترة ما بين الحربين العالميتين (1930-1933)، هي الشخصيات الرئيسة في الرواية -متحررة من المبالغات والزوائد والزخرفات، بكل ضعفهم ومخاوفهم وشغفهم- يشكلون لوحة فسيفساء للإسكندرية في ذلك العصر.

بيرسا كوموتسي

من مواليد القاهرة. عادت إلى اليونان بعد أن أتمت دراستها في كلية الآداب جامعة القاهرة، تعمل بالترجمة إلى اليونانية من 1993 عن العربية والإنجليزية. ترجمت عن العربية إلى اليونانية الجزء الأكبر من أعمال نجيب محفوظ. حصلت على جائزة الدولة اليونانية في الترجمة 2016، كما حصلت على جائزة كفافيس الدولية، وجائزة حمد للترجمة، وكُرمت من جامعة الأزهر قسم الدرسات اليونانية. نشرت حتى الآن سبع رويات ترجم عدد منها إلى العربية مثل رواية "نزهة مع نجيب محفوظ".

صفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET
ISBN 978-977-821-249-5
9 789778 212495

